مجموعة قصصية

وليد سميح العوضي

مجموعة قصصية

هرب الكلمات

وليد سميح العوضي

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

هرب الكلمات
تأليف : وليد سميح العوضي
مراجعة لغوية: محمود سلام
الإخراج الداخلي تصميم الغلاف :
رشا عبدالله
رقم الإيداع: ٢٣٩٢٩ / ٢٠١٦
الترقيم الدولي: 978-977-6598-03-4
الطبعة الأولى: ديسمبر 2016
المدير العام : أحمد عبد الجواد
مدير النشر : أحمد خطاب
مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712
3aberorg@gmail.com
www.3aber.org
عابر 3aber

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

إهداء

إلى والديَّ...

من لهما كل الفضل

وإلى زوجتي...

من لا أجد لها مثيلًا

هرب الكلمات

انتشر الخبر سريعًا على غير المعتاد..

البعض تلقاه بدهشة.. البعض الآخر تلقاه بلا مبالاة..

والقليل تلقاه بقلق...

وأقل القليل لما سمعه هب واقفًا وبدا كأنه قد فقد عزيزًا كان يخاف ويشفق من فقدانه يومًا.

لقد اختفت بعض الكلمات...!

كان أحد العلماء يقوم بالبحث عن بعض الكلمات في معجم من المعاجم الكبيرة، وعلى غير العادة أطال البحث، تعجب الرجل لأنه لم يجد مراده، عزا ذلك لتعبه وإرهاقه فأجّل البحث إلى اليوم التالي..

في الصباح سارع ليعاود البحث ومرة أخرى لم يجد الكلمة المرادة..

لقد أصبح الأمر مريبًا.. انتقل العالم إلى معجم آخر ليبحث فيه فراعَه وأفزعه أمر عجيب..

لقد كان مكان الكلمة التي يبحث عنها فارغًا!

مساحة من البياض بدلًا من معاني المادة المكتوبة، أو التي اعتاد أن يراها ويراها الناس مكتوبة..

أراد أن يستيقن مما رآه فاحتمال الجنون قائم، ولكن الإنسان يظل يحسن الظن بعقله والأمر قريب فقد يكل هذا العقل أو يصيبه الخلل فلا يعلم ولا يعقل من بعد ذلك شيئًا..

أراد أن يستيقن فجاءه اليقين بأسرع ما يكون: اتصل به صديق منزعجًا مضطربًا خائفًا..لقد حدث معه، نفس ما حدث معه!

بات الأمر واضحًا..

لقد كثرت المساحات البيضاء في الكتب والمعاجم وبان أن كثيرًا من الكلمات قد تركت محالها المعهودة وذهبت إلى حيث لا يدري أحد..

ولعلك تفكر الآن مع من يفكر: ما الإشكال؟! فلنكتب هذه الكلمات مرة أخرى في مواضعها ألستم على علم بها، وقرأتموها وكتبتموها مرارًا.. فما المشكلة؟!

المشكلة يا صاحبي

أن هؤلاء الذين اكتشفوا هذا الأمر وهم الأعلم بهذه الكلمات لم يفلحوا في تذكر هذه الكلمات أبدًا، وبدا أنهها -كما محيت من الكتب والمعاجم- قد محيت من رؤوسهم تمامًا بل بدا كأنهم لم يستفيدوا علمها أصلًا..

وذكر بعض الباحثين الذين تعرضوا لهذا الأمر أنه بعد التدقيق في مساحات البياض المتروكة في الكتب تم العثور على نقاط سوداء صغيرة اختُلف في كنهها، ورجح البعض أنها قد تكون نقاط الحروف مما يدل على أن الكلمات كانت كأنها مسرعة وهي تترك أمكنتها فارغة..!

انعقد مجلس مرتجل من بعض المهتمين بهذه الظاهرة ضم علماء وباحثين ونحويين وأدباء

للوصول إلى معرفة حجم الظاهرة ومدى انتشارها وهل اقتصر الأمر على اختفاء (سماه البعض هربًا) لبعض الكلمات أم أن الظاهرة متزايدة..

البعض جاء خائفًا مهمومًا، والبعض فوض أمره إلى الله، ولكن القليل منهم فقط كان يدرك خطورة الأمر و هول عواقبه..

تحدثوا كثيرًا وتناقشوا وخمّنوا بل تلاحوا وتبادلوا الاتهامات وكادوا يتشاتمون لولا أن هدّأ الموقف بعض العقلاء الكبار السن، وكاد الأمر ينفض على لا شيء، ولكن قام هذا الرجل العاقل فصمت الجميع هيبةً له، وأملًا.. لعله يكون لديه حل!

«أرى أن نلجأ إلى أعلمنا لعله يفتينا في أمرنا هذا العجيب، فليس لنا بعد الله عز وجل إلا أمثال هؤلاء..».

ولكن أين هذا العالِم الذي تنحل عنده هذه العجائب؟

شيخ كبير فانٍ أخذت الأيام نصيبها منه ونالت، لكن رغم ذلك ما زلت تشعر في عينيه بالقوة والمعرفة والتوقد..

انطلقت النخبة المختارة إليه.. عالم، لغوي، نحوي، فقيه، مفسر وقبل أن تجتمع في واحد وينبغ في جميعها..

كان على علم بما حدث ولكن أقعدته عزلته عن الوصال مع الناس ومبادلتهم الآراء حول الأمر.

ما الذي جاء بكم أيها الأساتذة.. هل تذكرتم الآن أن هناك شيئًا تقلقون لأجله، وتهتمون به.. هل كنتم تنتظرون قارعة تأتيكم -فقد جاءت- حتى تجتمعوا وتتعاونوا وتتفق كلمتكم.

«أهلًا وسهلًا بالنخبة من أهل العلم والفضل..».

(في صوته ما يشي بسخرية دفينة)..

فكّر أصغر عناصرهم وكان بارزًا في علم الأصوات، ولكنه كبح أفكاره وانتظر ما سيسفر عنه كلام الرجل.

جلسوا متجاورين مضطربين في غرفة العالِم الضيقة بالكتب المتناثرة هنا وهناك، وجهاز الكمبيوتر العتيق الطراز، والطابعة الكبيرة الحجم، والمكتب الخشبي العريض، ولكن كان خيط الأمل ما زال ماثلًا لم ينقطع عند أكثرهم..

«لا وقت للمقدمات.. ما زال هناك أمل في أن تعود الأمور كما كانت، وتؤوب الحروف من هرَبها المتعجل».

نعم.. فكّر العنصر الأصغر

لقد فكّرت في أمر مشابه لذلك: (رفع القرآن)

كما ورد في الأحاديث أن القرآن يرفع من الصدور فلا يتذكره أحد.. ولكننا لم نصل إلى هذا العهد بعد (أم هل اقترب؟) ولعل غياب الكلمات إشارة لقرب ذلك.. (لا بد من حفظ القرآن حتى نحافظ على روح هذه المعاني والكلمات).

«نعم هو كما خمنتم، ما زالت كلمات القرآن كما هي، وإن كل الكلمات الهاربة ليست في القرآن بحمد الله.. إذًا فهو ليس زمان رفع القرآن..

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا حدث هذا الأمر؟

أو -إن صح التعبير- بطريقة أخرى:

ما الذي جعل الكلمات تفر هاربة؟

إن الذي يلاحظ استخدام أهل الكتابة للكلمات يقف على حقيقتين:

الأولى: أن كثيرًا من الكلمات قد هُجرت هُجرانًا تامًا من قبل كثير من الكتاب، بل حل محلها كلمات ممسوخة أو كلمات غير عربية الأصل أو مولدة.

الثانية: أن كثيرًا من هذه الكلمات لم يعد لها صدًى في أعمال الناس وأحوالهم وتعاملاتهم وأضحى أهل الكلمة بعيدين عن روحها».

تابع الشيخ كلامه:

« لقد ظللْتُ سنين (فالأمر قديم) أتتبع هذا الأمر في الكتب والإصدارات المختلفة في صبر وأناة، وأفلحت بتوفيق الله وحده في استخلاص كلمات مهجورة كتابيًا، وكذلك لم يعد لها رصيد واقعي مستعمل، وألفت كتابًا كان همي الأول فيه أن أنتصف لتلك الكلمات، وآخذ بحقها ممن ظلمها على حسب زعمي وظني.

وحاولت جاهدًا في حياتي العملية أن أعالج الشق الثاني من الأمر وهو أن أنتصف لها في الواقع العملي بحيث لا تكون مجرد كلمات مكتوبة في كتب يعلوها التراب في مكتبات لا يدخلها أحد لانخراط العصر في قيمه الجديدة البعيدة كل البعد عن الروح الداخلية والمعاني الشفيفة الرقيقة السامية لهذه الكلمات.

تعاملت زمنًا بالأخلاق الرفيعة، وحاولت أن أتحلى بالصبر والوفاء والصدق والأمانة والديانة حتى أعياني هذا الأمر، وأعيتني أخلاق البشر العجيبة وتقلباتهم، فلا جرم أن اعتزلت الناس كما ترون.

ولا أزعم أني مصيب في ذلك ولكني في النهاية بشر له طاقة، ومهما تكن همتي فقد كنت فردًا وحيدًا أنادي ولا سميع ولا مجيب كسائرٍ في صحراء قاحلة يبحث عن الماء ولا يجد حتى نشوة السراب الزائفة.

لذلك تبلورت عندي هذه الفكرة..

إن الكلمات غاضبة ساخطة..

كأنها شعرت أنها ليس لها مكان ولا قيمة.. وكأنها قد محيت من الوجود إلا من بحوث يكتبها أناس يكدون ويتعبون فيها، ولا يقرؤها إلا واحد أو اثنان..

وكأن الكلمات أحست بقرب النهاية فأرادت أن تصنع نهايتها بنفسها.. وبيدى لا بيد عمر..

فاتخذتْ هذا القرار العجيب: الهرَب، (من الصعب أن تتخيل أن الكلمات تتخذ قرارًا)،

هربت الكلمات مخلفةً وراءها فراغًا كبيرًا لا يحسه إلا أهل هذه الصناعة..

ولكن أول الغيث قطرة، وسرعان ما ينتشر هذا السخط وذلك التمرد، ولربما ندرك زمانًا تخلو فيه الكتب، وتعود صفحات بيضاء، وتعود العقول غافلة، وتعود الهمجية والوحشية والتدمير.

شعر العنصر الأصغر بالرعب من هذه الأفكار..

قد يقول قائلٌ منكم ما بال هذا الرجل قد خرف.. يحدثنا بما هو محض خيال..محض خرافة.. نعم لقد كبر سنه، وبلغ من العمر أرذله فما المانع من أن يكون يهرف بما لا يعرف..

ساد صمت تام في الغرفة حتى خشي البعض أن يتنحنح..

وفي صمت قام الشيخ ليستخرج من ثنايا كتبه كتابًا متوسط الحجم قد جلد بعناية بتجليد يدوي، وبدا عليه أنه قد قرئ كثيرًا لاسوِداد أطرافه وتفرق أوراقه..

قال الشيخ:

«لقد كنت أعكف على قراءة الكتاب كل ليلة، وبالنهار أظل أحاول التطبيق العملي بين الناس حتى أصابني الكلل، ولعلي كنت أخفف من وطأة غضب الكلمات فلما كللت وأهملت القراءة شيئًا حدث ما حدث..

وأيًا كان الأمر فلا علاج إلا برد الاعتبار للكلمات عِلْمًا وعمَلًا، أضف إلى ذلك حفظ القرآن قبل أن تحدث أمور أخري نعض عليها أنامل الندم..

صمت الشيخ وجلس هادئًا كأنما أفرغ جعبته، وألقى عن كتفيه حملًا ثقيلًا..

تعالى لغط القوم واختلطت أصواتهم.. «ولكن أين ذهبت؟!».. «إذًا ماذا نفعل؟!»..

«هل ستعود سريعًا؟»..

ماذا...؟

كيف...؟

هل...؟

لم يعد الشيخ إلى الكلام مرة أخري، ولكن كان قد وقر في قلب كل واحد من الحضور أنه وقع علي عاتقه مسؤولية كبيرة لا يستطيع عنها فكاكًا..

تحسس العنصر الأصغر الكتاب القديم..

تصفحه سريعًا.. إشارات لغوية.. لمحات تفسيرية.. أشعار.. مقطوعات نثرية.. خواطر إيمانية..

وجد كلمات وضعت تحتها خطوط حمراء.. وأخرى تحتها خطوط زرقاء.. خمن أن اختلاف اللون بحسب درجة الأهمية..

انـصرف الجميـع وقـد عـلا وجوههـم بعـض الوجـوم والعبـوس.. ولكـن أزمـع كل منهـم أمـرًا..

فكر العنصر الأصغر وسرحت خواطره

لعلـه بعـد بضعـة أسـابيع أو شـهور- خـشي أن تكـون سـنين- يبحـث عـن الكلـمات..

يفتح هذا المعجم أو هذا الكتاب..

يقلب صفحاته التي غرقت بالبياض..

فيجد أن هناك- ولو بدت شاحبة باهتة- كتابةً..

بالفعل تحتاج إلى بعض الإيضاح..

بالفعل تحتاج إلى بعض العمل..

تحتـاج إلى بعـض الاسـتقامة والصـدق.. تحتـاج إلى لإفاقـة مـن الغفلـة.. تحتـاج إلى الإخـلاص والثبـات.

وتمنى في قرار قلبه أن يستطيع رؤيتها مرة أخرى واضحة الحبر..

قوية..

بارزة..

وأن يحس وهو ينظر إليها..

أنها راضية..

هانئة..

ولم تعد تنوي

هربًا...

١٤٣١هـ

الـرصاصة الحية

«كأنما أتوا من الخيالْ
من شرفة التاريخ والمآذن الطوالْ
من غابة الأحلام في الصبا
ولوعة المحالْ...».

(محمد إبراهيم أبو سنة)

...

تسـاءلتُ يومًـا حـين رأيـت الرصـاص أيـام ينايـر ينطلـق مـن أسـلحة الظلـم

ليصيب الأبرياء:

لو كان لهذا الرصاص قلب، فبمَ يشعر؟

وماذا يقول..؟

★ ★ ★

لن تصدقوني..

لو تكلمت.. وحكيت.. ووصفت.. بل حتى لو كتبت

لن تصدقوني..

لن أحكي لكم عن معرفتي بالطغاة ووسائلهم وجنودهم..

لن أحكي قصصًا مظلمة مرعبة، ومشاهد مفزعة في غرف مغلقة..

بل سأحكي لكم حكاية أخرى..

حكايـة شـهدتها، وعشـتها كـما لم يفعـل أحـد مـن قبـل، ولـن يفعـل أحـد مـن بعـد..

إنها حكايتي مع الصدور والرؤوس والأجساد..

إنهـا حكايتـي التـي لا تسـتغرق عـدة لحظـات تفـرغ بعدهـا منـي حيـاتي، وتتبعـثر عـلى الأرض..

لحظات خاطفة، لكن الأشياء بعدها لا تكون أبدًا مثلما كانت قبلها.

شرخ عميـق يحـدث في القلـوب ماديًـا ومعنويًـا فتصمـت إلى الأبـد أو تنكـسر إلى الأبـد.

إنهـا حكايـة تلخّـص الحيـاة في لحظـة، وتضـع أمامـك المـوت في صورتـه الصادمـة التـي قـد تطفـئ الحيـاة بغتـة، كأنهـا لم تكـن..

إنهـا حكايـة المسـافة بـين انطلاقـي مـن فوهـة سـلاح القاتـل إلى جسـد المقتـول..

نعم، فأنا رصاصة حية!

ولا تحسـبن الحيـاة مقصـورة عـلى الإنسـان، فكـم مـن إنسـان ميـت رغـم أنـه يتنفـس..

وكـم مـن جـماد استشـعر الألم حينـما كان الإنسـانُ يَذْبَـحُ -ضاحـكًا- أخـاه الإنسـانَ بـلا ذنـب أو جنايـة!

وكـم مـن رصـاص -ويـا لَثقـل الاسـم والصيغـة- أشـدّ حيـاةً مـن كثـير مـن البـشر!

إنِّي أَحمـدُ لهـذا الرجـل الـذكيّ الـذي لا أعـرف مـن هـو أن سـماني بهـذا الاسـم: الرصاصـة الحيـة فقـد نفـذ إلى أعـماقٍ لا يـدري عنهـا أحـد شـيئًا، ولكنـي أظنهـا صادقـة.

أعود إلى القول الأول..

لن تصدقوني..

وأنـا أيضًـا لم أكـن لأصـدق أن هـذا الجسـم الصغـير الممتلـئ بالبـارود يمكـن أن يكـون لـه ذلـك الأثـر الرهيـب، كأن هـذه الـذرات هـي مـواد الغـدر والحـرب والاشـتعال..

هـذه القطعـة المعدنيـة البـاردة الصامتـة السـاكنة تصـير بضغطـة واحـدة شـعلةً ملتهبـة، فإمـا أن تنطلـق بحـق فيسـتحق صاحبهـا البطولـة والتكريـم، وإمـا أن تنطلـق بباطـل فيـتردى صاحبهـا في هـوات مـن الخـزي والذنـب والخـذلان، إن لم يكـن في دنيـا النـاس ففـي الآخـرة حيـث لا يبقـى الظـالم ظالمًـا ولا المظلـوم مظلومًـا..

أعلـمُ أنكـم شـغوفون بنهايتـي، ومعرفـة مـن أصبـت، ومـاذا رأيـت، ومعرفـة موقفـي مـن هـذا الأمـر!

ولكـن لا تسـبقوا الأحـداث فأنـا رصاصـة عمليـة منتظمـة في عقـد دائريّ أو تصاعـديّ مرتـب ولـكلٍّ دوره الـذي هـو آتٍ يومًـا مـا، لـذا فقـد تعلمـت الصـبر والانتظار.

لطالما كنت أسمع الحركات والاستعدادات والكلمات وأشعر بتحسس صاحبي لآلته الرهيبة

كنت في أول أمري أقبع خائفة بين صاحباتي أنتظر ما ستسفر عنه المهمة، وغالبًا ما كنا نعود دون إطلاق، فنلتقط جميعًا -إن كان لرصاصة أن تلتقط- الأنفاس، ونحمد الله على ذلك.

وأذكر أول مرة انطلقت إحدى الرصاصات فزعنا من هول الصوت، وظللنا نرتجف وننظر إلى صاحبة الدور.. هل ستنطلق؟

هل ستنفجر لتصيب أحدًا أو تقتله؟

ولكن سرعان ما هدأ الأمر، ومع طول الانتظار وخبرة الصمت والظلام تكونت لدينا حاسة مرهفة نعلم من كلمات وحركات ولمسات صاحبنا لآلته وزناده ماذا يريد أن يفعل بل فيم يفكر.

يلمس الزناد مرة واحدة.. لا إطلاق للرصاص.

يداعبه بحركة رتيبة.. إنه يفكر بشرود.

يخبط بصلابة على ماسورته.. إنه يتلقى أوامر من رئيسه.

يتحسسها بلطف ويتمتم بنشيدٍ ما.. إنه يشعر بالحنين لأهله.

نعم.. فحتى حاملو الأسلحة لهم مشاعر.. يحبون، ويحنون، ويبكون، ويفرحون..

وقد تخفق قلوبهم شوقًا إذا طالت مدة بعدهم.. وقد تخفق خوفًا حين تؤمر بإطلاق النار وقد تنقبض رعبًا حين تشعر بالخطر..

ومنهم من يخفق قلبه شوقًا إلى إطلاق النار.. وسعادةً حين يتلقى أوامر الضرب والقمع.. ونشوةً عند إصابة الناس وقتلهم..

ولما كنا نحن خط الدفاع الأخير، ولا يُلجأُ إلينا إلا بعد الهراوات والعِصِيّ، وغازات الدموع، والرصاصات المطاطية؛ فقد قل استخدامنا في الغالب..

هكذا كان الحال إلى أن جاء وقتٌ أحسسنا فيه باضطراب يد صاحبنا وكثرة مداعبته الزناد وكثرة الحركات والكلمات، لذلك حصل بيننا تفاهم على استنتاج واحد: لقد حان أجلنا وانقضى زمن الانتظار.

دبيبُ الأقدام الرتيب، وصيحات الأفواه، وضبط الأسلحة واحتكاكها، وتحرك العربات المكتوم..

لقد اقترب الأجل..

لقد اقترب الأجل..

تخيلت ما يدور في رأس صاحبي وهو ينطلق لينتشر مع فرقته إلى منطقة استعداده وكُمونه لم نكن رغم صمتنا وظلامنا وانتظارنا.. جاهلين بما يحصل من حولنا..

شعرنا بما يحدث..

شعرنا بقلوب فتية تخفق بعدُ، ولم يكن يظن أحدٌ أن تخفق ثانية..

بسواعد وأيدٍ قوية مصممة تتشابك كما لم تتشابك من قبل..

بأرجل وأقدام تنطلق وتتقدم في جرأة وشجاعة كما لم تتخيل هي نفسها أن تفعل في يوم من الأيام..

بأرواح تكاد تحلق بعد أن ذاقت مرارة يأس وكبت وقهر، حتى باتت تطلب الانفلات ولو بالموت..

بجموع اتفقت وتوحدت على غير ما موعد، وحدها ذلك الشعور العام الذي تتفق فيه كل النفوس ولو تباعدت واختلفت في منازعها وأفكارها، الألم!

قل إن شئت إن أنهار الألم هي التي تحركت فياضة منهمرة فانهارت أمامها سدود الوهم والظلم.

قل إن شئت إن أنهار الألم سالت لتكسح أمامها الخوف واليأس والتعب.

ولكن مع الأسف لا يُحسِنُ الظلمَ أمام نهر الألم إلا لغةُ المحو والإزالة.. إلا لغة الإبادة والموت!

ولا يدري أن الألم يتغذى بمزيدٍ من الألم فينمو النهر ويزداد قوة على قوته، وفيضانًا على فيضانه.

جاء دورنا..

وشعرت بيد صاحبي تربت على آلته الرهيبة..

وحبسَ الرصاصُ -إن كان له أن يحبس- أنفاسَه انتظارَ الانفجاراتِ المتوقعة والأصوات المفزعة.. وانفتح الأمر وتسارعت الأحداث، وتوالت الانفجارات والأصوات، وأخذت الرصاصات تتناقص في خزاناتها، وكل واحدة تنطلق تترك بعض الألم في صاحباتها القابعات الساكنات الخائفات.

ماذا سيكون المصير؟

إلى أين سيؤول أمر هذه القطعة المعدنية الصغيرة الكبيرة الأثر السريعة سرعة الصوت؟

هل ستسكن جسد رجل؟

أم جسد امرأة؟

أم جسد طفل صغير؟

هل ستقتله أم تجرحه أو تخدشه؟

أم هل ستصيبه بعجز مزمن؟

أمر مرعب لأن الواحدة منها لا تتحكم في مصيرها بل هي ماضية رغم أنفها في طريق أبدي مستقيم تنتهي بعدها حياتها القصيرة.

ماذا أقول وقد قاربت النهاية؟!

لقد كان عندي من الكلام الكثير والكثير ولكنني أضطرب أمام هذه الانفجارات والنيران والأضواء والصرخات..

صرخات الألم، والخلاص، والغضب..

صرخات الحق!

حان دوري ولما ضغطتْ يد صاحبي زناده الضغطة الرهيبة المنتظرة؛ أحسست مُرَّ مذاقها ووجدتني رغمًا عني أتحفز.. أشتعل.. ألتهب.. ثم أنطلق!

صدمني الضوء الباهر الذي أزال ظلمتي الطويلة بغتة، ولكني رغم السرعة، ورغم الضوء ورغم الصوت الهائل.. لمحتُ لمحاتٍ، والتقطتُ لقطاتٍ كنتُ أعلم أنها سرعان ما ستذوب،

لمحات ولقطات شعرت بعدها أن هذا الإطلاق والاشتعال لا ينبغي أن يكون، لا ينبغي أن يقابل هذا الفيضان وهذا التدفق بهذه الرصاصات!

أحجارٌ تُقذفُ.. ودماء

أجسادٌ.. عرباتٌ..

أسلحةٌ.. هرولةٌ..

وهُتافٌ ودموع..

إطلاقٌ، تفجيرٌ..

زلزلةٌ، أشلاء

أطفال ورجال وشباب..

أمٌّ ثكلى..

لم تعرف شكل الابن

لم تعرف أن الدم قد صار قريبًا

صار كثيرًا

صار يجلجل في الأنحاء!

وصدقوني (هل صدقتم الآن؟)

إذا قلت لكم إني قد حاولت أن أنحرف عن مساري المحدد.. حاولت ألا أصيب هذا الشاب الرقيق الذي دق جسده وبرقت عيناه وزُمت شفتاه بحزم مطلق..

حاولت أن أنحرف ولكن قوة الاشتعال، وكونية المسار أثّرتا أثرهما السرمدي فما كان هناك من بد..

وحدث الاختراق..

ولو كان الرصاص يغمض عينيه من الألم لأغمضت عيني، وأنا أخترق صدر هذا الشاب الوديع الحازم..

وأحسست بدفء قلبه العجيب..

وقبل أن تنتهي مني حياتي لامست روحه وما جال بنفسه..

أشياء بعيدة جدًّا وقعت في قاع قلبه، أشياء كان يظن أنها قد ماتت إلى الأبد، وتراكم عليها التراب، بل تعفنت، وتحللت، واختلطت وذابت، ولكنه يعجب كيف استيقظت الآن وكيف أحس بوجودها بعد طول موات..

روح جديدة، وحراك جديد وليد باهر منعش يبعث البسمة في القلب اليابس كما تبتسم الأم حين ترى حركة حملها الصغير لأول مرة..

تختلط الفرحة برجفة القلب البكر، بقشعريرة الجسد، بالدموع التي لم يعد يخجل منها كما كان يفعل من قبل..

وتنتهي حياته على شبه ريح منسابة:

...

إذا قرأتم هذه الكلمات.. هذه الرسالة

وأحسستم ببرد القشعريرة فوق ظهوركم..

وأحسستم بتلك الغصة المريرة في حلوقكم..

وإذا شعرتم بالدموع تتسلل إلى عيونكم..

فلتعلموا عندئذٍ أني لم أضع هباءً.. ولتعلموا أنكم أنتم أصحاب الحق والحرية..

وأنكم أقوياء..

وإن بقي الرصاص في صدوركم، وإن لامس قلوبكم، وإن قتل بعضكم أو كثيرًا منكم فإنه لم ولن يقتل تلك النفوس..

ولن يطفئ تلك الجذوة..

ولن يزيل قشعريرة الحق..

وانتفاضة الضوء..

وبريق الحرية..

من أرواحكم.

«رصاصة حية «

١٤٣٢ هـ

الفرقد

نعم..

أعلم أني قد خنت أبناء جنسي..

أعلم أني قد أصبحت منبوذة مبعدة كناقة جرباء..

أعلم أني حين أنظر حولي لا أجد إلا نظرات الحقد والكراهية والبغض.. وأحيانًا أجد نظرات الشفقة الزجاجية الباردة..

وأحيانًا أقلَّ أجد في غيوم النظرات شيئًا دفينًا كالرثاء أو الحنان سرعان ما يزول كسحاب خجل من بهاء الشمس..

أعلم كل ذلك، ولكني لا أستطيع فكاكًا عما أنا فيه..كما فعل الشيطان الرجيم حين تورط في مستنقع مخالفة الرب..

كيهوذا صاحب العينين الخاطئتين في أساطير النصارى الذي خان المسيح عليه السلام..

أعلم كل ذلك، ولكني رضيت منذ زمن طويل ببكاء صامت لا يغني عني شيئًا، لكنه يفعل فيّ فعل المسكن في الألم الذي يعود قويًّا بعد زوال مفعوله، وكذلك أحس فيه ببعض الطهر حين أرى هذه

الدمعات.. هذه القطرات الحمراء.. تتحدر مني، وأرى تعجب الناس من حولي وهم ينظرون، ويتعجبون، ويتساءلون.

هل يبكي الشجر...؟!

مع كل قطرة.. مع كل دمعة، كنت أتذكر.. تتوالى ذكرياتي قطرات، وأعود لأسأل نفسي ذلك السؤال المقيت الذي ذقت ألمه حين كان أليمًا، ثم ذقت مرارته، ثم ذقت طعم الندم فيه، ثم اعتدت هذا المذاق الأليم المر النادم والسؤال يتكرر تلقائيًا في أغوار نفسي كشريط معطوب..

لماذا فعلت ما فعلت..؟

اعذروا لي أشجاني وخواطري وكلامي المبعثر..

سأحدثكم من البداية..

أنا شجرة..!

ولكني لست كأي شجرة..

يقولون إن بعض الشجر يعيش مئات السنين وربما آلاف، ويقولون إنه يُعرف عمره من طبقات لحائه، ويقولون ويقولون.. لكنهم أغفلوا معارف هامة جدًا لم يبحث عنها أحد..

هل الأشجار تشعر؟ هل تفكر؟ هل تسجد؟ هل تعبد؟

وهل لها لغة تتواصل بها مع غيرها من المخلوقات؟

في أذهانكم أيها البشر أن الشجر لا يفعل معظم هذه الأشياء.. تظنون أنكم أنتم فقط الموهوبون المتميزون الذين رزقهم الله وسخر لهم كل النعم، وغفلتم عن بقية المخلوقات فلم تتفكروا فيها، وغفلتم كعادتكم مرة أخرى عن شكر هذه النعم التي تترى ليل نهار بل

غفلتم عن تسبيح الله، وأعرضتم كما فعلت أنا، وخنتم ميثاق العبودية والطاعة.. تمامًا كما فعلت أنا!

آه..

لو أستطيع أن أطلق هذه الزفرة الحارة الملتهبة التي تملأ صدري لتذيب صمتي وتفك قيدي لو استطعت لكنت من أسعد الأشجار في الكون..

ها أنا ذا تأخذني الخواطر مرة أخرى دون أن أحدثكم بالقصة من البداية..

نعم..

لقد كنت هناك..

كنت وسط هؤلاء القوم الذين علموا علمًا يقينيًا ما هو الحق، ومع ذلك ما أضمروا إلا العداوة..

أبصروا طريق الهدى، ثم عن عمد خالفوه، وعن يقين تركوه..

كنت مع قومٍ يهود..!

وكنت في مدينة النخل التي نُوِّرتْ بمقدم النبي المختار، وقد ظل هذا الاختيار محل غيظ وحقد وألم عند القوم، فلا جرم أن نذروا أنفسهم لعداوته الدائمة إلى أبد الآباد مع معرفتهم به كمعرفتهم أبناءهم..

كنت بينهم أنعم بصلات كثيرة مع أبناء جنسي من أنواع الأشجار المختلفة، ومع النباتات والحشائش وأتفاهم معهم بلغتنا..

ولكثرة مكوثي بين اليهود، ولشدة تأثري بهم بدأت في مخالفة قانون العبودية، وخنت مبدأ المخلوقات العام:

{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

ورغم أنه حليم غفور يحلم عن المسيئين ويمهلهم مرة تلو مرة، غفور دائم الغفران، فقد علمت أن طريقي سيظل غير منتظم في هذا القانون الأعظم لأني قد فتحت الباب الذي لن يستطيع أحد -إذا فتحه- أن يغلقه، ولن يستطيع أن يعود دون أن يلجه..

واتبعت طريق هؤلاء الأساتذة الذين سبقوني في الولوج.. وعلمت منذ تلك الساعة أني مقضيٌّ عليّ بالبعد والمخالفة..

لقد عشت مع يهود فترةً طويلة، منذ أحقاب لا أذكرها إلى أن نزل النبي بمدينة النخل وحتى الآن.. سمِّها ذاكرة جمعية للأشجار.. أو أن الأفكار والذكريات تنتقل عبر كل شجرة.. أو أني ظللت حية نامية حتى نقلت ووصلت إلى هنا..

لا أدري..

كل ما أدريه الآن أنهم يغرسون أشجاري في كل هذه الأنحاء المباركة.. في هذه الوديان الأسيرة المكبلة.. وديان فلسطين.. نعم فلسطين فلقد كففت منذ زمن عن تسمية الأشياء بغير أسمائها..

والعجب من هذا الجاحد الذي يعلم صدق خصمه وكذبه هو، ويعمل بنصح هذا الخصم الصادق.. وكأن هذا الصادق يقول لخصمه: لا تضربني بهذا السلاح فإنه لا يجدي نفعًا واستخدم ذلك السلاح الآخر لأنه أنفع..!

(إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)

وليس هذا عن غفلة وجهل -معاذ الله- وإنما ليعلم صاحب الحق أي خصم هو خصمه وليظهر كذب الخصم وجحوده.

ولقد خُدعت فترة من الزمان..

وظننت أن الحق مع هؤلاء، فتبعتهم وآزرتهم فيما هم فيه، وأعجبني فيهم إصرارهم وثباتهم على مبادئهم..

وأرى ذكريات قديمة كخيالات مشوشة عن حالهم مع موسى عليه السلام..

وأرى خروجهم من مدينة النخل..

وأرى تفرقهم وشتاتهم وضعفهم..

ثم أرى نصرهم على المسلمين، وعلى العرب الذين رسموا دائرة الإسلام في الخارج، وتفننوا في نقض دوائره الصغيرة في الداخل دائرةً دائرة..

ويوشك ذلك أن يأتي على الدائرة الكبيرة..

ولكني سرعان ما أدركت أي مخطئٍ، وأي غرٍّ مغبونٍ كنته.

إن لديهم إصرارًا وثباتًا عجيبًا.. ولكنه فيما خططوا له من الباطل ومن المصائب والكوارث..

إنهم أساتذة وعباقرة.. ولكن في الخبث والدهاء وإفساد العالم..

إنهم مع الأسف..

عرفوا من أين تؤكل الكتف.. فأكلوا كتف العالم، فأصبح العالم يتكئ عليهم يدري بذلك أو لا يدري..

أقول ظللت معهم طويلًا وبعدت عن معاني التسبيح والعبودية والسجود..

أيُّ ألمٍ كان يعتريني حين أرى باقي الأشجار تسجد لله -ولكلٍّ سجوده- ويسبحونه وأنا ما زلت أتجرع ألم صمتي وبعدي..

وتفردي وعجزي؟!

هل سمعت عن الشجرة التي علّمتْ بني آدم دعاءً للسجود؟!

حدثني بعض الشجر خلسة بلغتنا التي لا يفهمها البشر أن شجرة كانت تصلي وتسجد

لكن رجلًا لم يدرك سجودها إلا وهو نائم فسمعها تقول في سجودها: «اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْ مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَ مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ».

فأخذه هذا الرجل من أصحاب نبي الإسلام (الذي علمتُ بعد ذلك أنه نبي العالمين) وحدثه به، فحدث به أصحابه، وصاروا يدعون به في سجودهم.

والسجود في ذاته فعل عجيب لا يمكن وصفه..

أنتم لا ترون سجود الشجر، ولا تحسونه ولا تفهمونه، وأكثركم يسجد بلا فهم، ولا خشوع، ولا حمد!

والسجود يستأهل حمدًا لذاته..

ألم تسمعوا أنتم عن بشريٍّ مثلكم يبكي لأنه لا يستطيع أن ينزل بجبهته إلى الأرض..

لا يستطيع أن يحس تلك المتعة في هذه الهيئة (التسليمية) المتقنة؟!

ألم تسمعوا أيضًا عن ذلك البشري غير المسلم الذي أجرى البحوث على هيئة السجود وأثبت أنها الهيئة الوحيدة التي يسترخي فيها الجسد ويكون في أفضل حالاته؟

ما هذا؟!

هل ألومكم وأنا مثلكم؟!

أتهكم و أسخر وأنا أحق بالتهكم والسخرية؟!

ولكن عذرًا.. فأنا اليوم لا أخفي عنكم ما أنا فيه من ضنك وكرب، وقد مللت صمتي وكرهته، وأردت اليوم أن أبوح بوحًا سمه إذا شئت بوحًا صامتًا!

لكنه رغم كل شيء بوح صادق..

رغم ما فيه من إثم..

وألم..

لم أحدثكم عن أحلامي بعد..

أحلام بعيدة في الزمان والمكان، وأحلام قريبة..

أحلام عن أحداث وقعت، وأحلام عن أحداث لم تقع..

كنت أحلم دومًا في المنام واليقظة حتى اختلط الأمر وبت لا أفرق بين الحلم والحقيقة ولو كان الشجر يجنُّ لعدُّوني شجرةً مجنونة، ولكن قُضي أن البشرَ أعقد عقولًا ونفوسًا فهم أقرب إلى الجنون منا!

كنت أحلم دومًا بذلك الجيش الذي يأتي ليجوب هذه البلاد، ولمجرد مقدمه تسعد الكائنات، وتنطلق الألسنة، وينفك أسر القلوب..

جيش لا يرهبه مرهب، ولا يخيفه سلاح..

رجال طوال أو قصار.. كثيرون أو قليلون..

جيش يذكرني بهؤلاء الأوائل الذين طردوا قومي..

الواحد منهم -ولو من دون عدة- كالجيش الصغير..

قوي.. صلب.. مقدام..

يسري هذا الجيش بين الوديان والجبال والبيوت والشوارع، ويقاتل قومي، ويثأر لكل القتلى والأسرى والجرحى والأرامل والفتيات الباكيات عرضهن..

وتنطق كل الجمادات من حولي بالتسبيح أو الدعاء أو.. بالتحذير:

(هذا يهودي خلفي..

هذا يهودي خلفي).

وأحاول أنا في هذه اللحظات العجيبة الشفافة الصادقة التي أظن أني ألامس فيها حقيقة الكون..

وسر الميلاد والموت..

ومغزى التسليم للإله..

أحاول في هذه اللحظات التي تتطاير فيها الأشلاء، ويرتفع اللغط، وتعلو الصيحات..

أحاول ولو لمرة واحدة أن أكون مثل هذه الجمادات الأخرى، ولو كان في ذلك أن أتبرأ من قومي وأرى وأشعر في بقية الأشجار البغض والكره والغيظ لي ولكل شجرة سادرة في (غرقديتها)..

أحاول ولو لهنيهة..

ولو للحظة..

ولو للمحة..

أن أنسى ما أنا فيه من الصمت..

وأحاول.. وأحاول..

ولكني لا أفلح.. وأنا أعلم أني لن أفلح.. أمل يبرق في النفس وهي تعلم أنه سراب ولكن هذه الجمرة تظل تبرق ولو خادعة فتبعث الحياة في الجسد رغم أنها قد تكون حياة كـ(لا حياة)..

ولا أفلح في أن أنطق فأتجرع مرارة الصمت كما تجرعتها دومًا..

ولا أجد إلا هذه القطرات..

هذه الدمعات الخرساء التي أفرغها..

مع حزني..

وألمي..

وندمي..

محرم ١٤٣٢ هـ

ميمي تشعر بالرعب

لَـوْ وَنَى ذَلِـكَ الغَـمَامُ لأطلَقْـ ـتُ مـزاد الدمـوع مـن أجفاني
فعليـك السـلام مـن خاشـعِ النـا ظِـر مُسْتَسْـلِمٍ لريْـبِ الزّمَـانِ
يَنظُـرُ الدّهـرَ بَعـدَ يَوْمِـكَ وَالنّـا س بعـين وحشـيَّة الإنسـانِ

الشريف الرضي

.....

تخيل معي في المستقبل القريب..

يتحدثون عن كواكب أخري عليها حياة..

كائنـات حيـة عاقلـة تفكـر وتناقـش وتجـادل، تتناكـح، تتناسـل، تتكلـم لغـة متطـورة، يشـيدون الأبنيـة، ويمـدون الطـرق، يسـافرون، يرتحلـون، ويتاجـرون، ويبيعـون، ويشـترون، يركبـون الدراجـات، والسـيارات، والقطـارات، والسـفن، والطائـرات، بـل المركبـات الفضائيـة،

يتـزاورون، يتضاحكـون، يعبـدون، يصلـون، يؤمنـون، يكفـرون، يموتـون، يـضرب بعضهـم بعضًـا..

و...

يقتل بعضهم بعضًا..

...

لم يصدق ذلك العالم هذه النظرية لأول وهلة.. ولولا بعض المعلومات والصور لما صدقها

ولكنه أراد أن يتأكد..

همس لنفسه:

«هل هناك كائنات عاقلة مثلنا في كواكب ومجرات أخري بالفعل؟!»

ولكن..

ما الطريقة المثلى للتأكد من ذلك..

أخذ يجمع المعلومات..

علم أن الأمر يحتاج إلى عمل كثير.. ظل العالم طويلًا في معمله الملحق بالمؤسسة الرسمية العلمية..

كان يستطيع وضع خطة العمل ويتم إنتاج ما يريد في وقت قليل مع توافر الإمكانيات والمصانع المسخرة لخدمة البحث العلمي.

استقر أمره على صنع آلة صغيرة محملة بأجهزة لتسجيل وتصوير والتقاط المعلومات والعينات وأزمع أن يجعلها محاطة بغلاف من الطاقة يجعلها غير مرئية..

فكر قائلًا:

«لا نريد أن نصيب هذه المخلوقات بالفزع»

تذكر قصة أو فيلمًا قديمًا عن مخلوقات نزلت الكوكب، وقامت الحروب والمقاومة، ثم تبين في النهاية أنها قد جاءت في سلام، وما حملها على الرد والقتال إلا بدء أهل الكوكب بالعدوان..

بعد يومين كانت الآلة معدة للعمل، ومزودة بـ(برنامج) متطور، متكلم مفكر بذكاء اصطناعي، ومحاكاة للمشاعر البشرية، وصوت معدني أنثوي يتحدث ليخبر بما تقوم به من أعمال..

«الآلة (M) جاهزة للعمل».

أتم العالم تحميل برنامج الرحلة إلى هذا الكوكب البعيد.

مجرة بعيدة في تناثر كواكبها ونجومها تشبه قطرات اللبن المفتتة، والكوكب المراد.. به كثير من المياه، وحيثما وجد الماء وجدت الحياة، والله جعل من الماء كل الأحياء..

فكر العالم، وسبحت به خواطره..

هل يمكن أن نستفيد من هذا الكوكب؟

هل حقيقة يحوي مخلوقات عاقلة مثلنا؟

هل يمكن الوصول إلى تعاون مشترك بين الكوكبين؟

ما مدى تقدمهم العلمي والثقافي؟

ما مدى تحضرهم وتنظيمهم؟

ثم انخفض صوت تفكيره:

هل نغزوهم ونستولي على خيرات كوكبهم؟!

ثم نفض هذه الفكرة الخبيثة عن نفسه..

لا.. لقد توصلنا هاهنا لقرارات صارمة، ونظم أخلاقية متحضرة، وفي هذا خرق لكل ذلك، بل امتهان لهذه المخلوقات..

ودون وعيٍ منه أشفق علي أهل ذلك الكوكب، وتراجع عما كان يفكر فيه، كأنه يطلب منها الاعتذار.

انطلقت الآلة (M) في رحلتها الطويلة، ورغم طول المسافة ظل الاتصال واضحًا بينه وبينها.. توالت الأيام وهو ينتظر على أحر من الجمر لشغفه باستكشاف هذا الكوكب البعيد ثم جاءت الرسالة المنتظرة أخيرًا:

«تم الهبوط على سطح الكوكب بحمد الله.. (ميمي) تبدأ البحث»

كان يشعر بالغرابة حين تدعو نفسها (ميمي).. قالت إنها لا تحب أن تدعى بالآلة واختارت هي هذا الاسم..

من العجيب أن تتخيل أن آلةً تحب أو لا تحب..

لم يجد ما يمنع من ذلك..

«ميمي ترى ضوءًا ساطعًا»

كانت تتكلم وتقرن كلامها بإرسال الصور والمعلومات المدونة، وكان ذلك يظهر على شاشات عملاقة في معمل العالم..

«قومي بتشغيل كاميرا التسجيل..»

أعد أجهزته لاستقبال بث الكاميرا المباشر، وجلس والشوق والشغف يأخذانه

إن هذا الكوكب ينعم بوجود نجم شمسي كبير يبعث فيهم الدفء والضوء معًا، وأظهر المسح الجغرافي وجود مساحات كبيرة من المياه..

فكر العالم:

يتحدثون عن أزمة مياه عندنا.. يوجد كنز كبير على هذا الكوكب..

ودون وعي منه تساءل في خفوت:

«ولكن.. هل يعي أهل الكوكب ذلك؟»

الآن أصبحت ميمي هي عينه التي يرى بها ويعيش بين ربوع هذا الكوكب وأناسه بها.

إن أول ما راعه في هذه المخلوقات: الأصوات..

أصواتهم عالية مؤذية، وهم سريعو الغضب والاشتعال بصورة مرعبة..

المهم..

كان قد أعد خطة من عدة خطوات للتعامل مع الكوكب:

أولًا: جمع المعلومات الجغرافية العامة.

ثانيًا: معرفة طبيعة المناخ، وهل هو صالح للعيش فيه.

ثالثًا: تعرُّف خصائص السكان الفيزيائية، وأجناسهم.

رابعًا: معرفة لغاتهم وثقافاتهم وتاريخهم ودرجة تحضرهم وطبيعة العلاقات القائمة بينهم.

وأخيرًا...

محاولة الإجابة عن سؤال واحد:

(هل يمكن إقامة علاقة حضارية مع أهل هذا الكوكب؟)

كان هذا الأمر يؤرق العالم.. ما احتمالات النجاح في ذلك؟

هل يعود ذلك بالنفع علينا أم لا؟

انقطع عن بيته وأولاده واستأذنهم في الانقطاع لهذا الأمر بعض الوقت..

أقام في معمله يأكل وينام وينظر ويشاهد، ويستمع لما ترسله الآلة (M) أو ميمي كما تحب أن تسمي نفسها.

ما كان يغفو أو تأخذه سنة من النوم إرهاقًا وتعبًا إلا ويفزع ويقوم لينظر إلى الشاشات منبهرًا..

ما كل هذا الجمال؟!

ما هذا السحر العجيب في هذه الأرض؟!

طبيعة ساحرة.. أنهار.. شلالات.. بحار.. و...

ولكن ما هذا...؟

وما هذا...؟

وما هذا...؟

وما هذا...؟

أشياء ومناظر لا يصدقها عقل.. تنافي كل ما رزقه الله لهذا الكوكب من جمال ونعم.. وحمد الله أنه رفض وجود مساعدين معه على الأقل في الأيام الأولى حتى لا يحدثَ ذعرٌ عام..

ما هذا؟!

أتاه صوت الآلة مكررًا:

«ميمي تشعر بالرعب!»

...

في حياته، بل في تاريخ كوكبهم كله لم يحدث كل هذا الكم من الحروب والقتل والتدمير والإبادة والعنصرية والظلم والفتك والوحشية والهمجية، وكل ما يمكن أن يوجد في المعاجم من كلمات ذات ملمس خشن ومعنًى قبيح..

«ميمي تشعر بالرعب!»

إن أهل هذا الكوكب ليسوا كغيرهم من المخلوقات العاقلة، نعم هي مخلوقات ولكن من المستحيل أن تكون عاقلة..

هؤلاء القوم يمضون نحو الفناء بخطًى شديدة السرعة، والأدهى أن معظم تقدمهم التقني مسخّر -بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ- لخدمة هؤلاء المجانين المولعين بالحروب والأسلحة..

وربما لا يمضي كثير وقت حتى يفكروا في غزو كواكب أخرى خصوصًا وبرامج غزو الفضاء عندهم عاملة من قديم..

فكر العالم وهو يرتجف:

لا بد من إبلاغ المجلس العام!

«ميمي تشعر بالرعب!»

نعم.. أسمعك يا ميمي..

«ميمي تريد أن تعود»

أفاق على كلمتها الأخيرة.. تريد أن تعود..

لقد كان مقررًا أن تظل هناك عامًا تدرس فيه كل شيء، ثم تدمر الآلة نفسها وينتهي دورها فهي ليست سفينة فضاء، وما كان مقررًا لها العودة بحال.

قال بصوت خافت:

«إن برامج الذكاء الاصطناعي تطورت بالفعل».

قال لها:

«سأعود لك مرة ثانية يا ميمي»

وللمرة الأولي لا يستغرب نطقه لاسمها الجديد.

...

كانت كلمته مسموعة في المجلس العام للكوكب فأسرعوا بعقد جلسة طارئة..

وظل العالم يقدم لهم نتائج ما توصل إليه، ويعرض الصور والأفلام والمعلومات حتى اتضحت الصورة كاملة، وانتقل للمجلس شعور الرعب العام الذي ناله العالم وافرًا من قبل..

وفي ختام كلمته للمجلس قال:

سأعود إلى مركز المتابعة لآمُر ميمي.. أقصد الآلة (M) بالتدمير الذاتي في صحراء بعيدة (يا للمسكينة! أشعر كأني أفقد صديقًا!)

ولكني أكرر توصيتي بسرعة وضع مشروع لإقامة مستعمرات في أماكن بعيدة، أو في الفضاء، أو حتى في كويكبات صغيرة بعيدة عن هذا الكوكب الذي درسناه، لأن التتبع النفسي لتنامي هذه الأخلاق البشعة عند عامة أهل هذا الكوكب يؤدي إلى نتيجة حتمية واحدة ألا وهي وصولهم إلينا وغزونا، خصوصًا ونحن أقرب الكواكب المأهولة إليهم، وهي فرصة لن يترددوا لحظة في نيلها إن استطاعوا.

سأله أحد أعضاء المجلس وكان قد تأخر عن الحضور شيئًا:

«ما اسم هذا الكوكب الغريب؟»

توقف العالم عن سيره وابتسم في ألم قائلًا:

«إن أكثر مساحة الكوكب من المياه، ومع ذلك فإنهم يسمونه:

كوكب الأرض!

...

ربما يومًا ما تقرأ هذا الخبر من جريدة أمريكية شائعة:

(عُثِرَ على بقايا معدنية غريبة في صحراء أريزونا...

والبحث جارٍ للتحقق من مصدرها، وإن كانت البحوث الأولية التي أجراها العلماء قد كشفت عن غرابة المعدن ومتانته العجيبة غير المعروفة في معادن الأرض.. ويرى بعض العلماء أن هذا المعدن ربما يكون بقايا سفينة فضائية لمخلوقات من كواكب أخرى...

المزيد صفحة...).

شوال ١٤٣١ هـ

الأسود تتحفز للوثب

عَلِّمُوا الليـثَ جَفْلَةَ الظبي وامْحُوا
قَصـصَ الأُسْـدِ في الحديـثِ القديمِ
هَمُّهُـمْ غِبْطَـةُ الرقيـقِ بِـرِقٍّ
كلُّ تأويـلهمْ خـداعُ عليـمِ

(محمد إقبال) بترجمة: صاوي شعلان

الأمر في غابتنا عجيب..

إنها ليست كأي غابة تعرفها أو قرأت عنها، حيث لكل حيوان دور معروف، وطريقة عيش معروفة إن كان لاحمًا أو عاشبًا أو كليهما.. قويًا أو ضعيفًا..

شجاعًا أو جبانًا..

إن الغابة كالصفحة البيضاء التي لا جديد فيها..

ولكن هذا الأمر خرق كل القواعد بغرابته..

إن الأسود لم تعد هي ملوك الغابة!

نعم..

لقد استأنس الأسد..!

استأنس الأسد (الذي عرفتْ الغابة كلها بعد ذلك أن كل من يراه يهابه، وأنه مشهور بالشجاعة والكرم والقوة والبأس وكل الخصال التي لو قالها واحد لهم من قبل لاستلقوا على ظهورهم ضحكًا، ورفعوا أرجلهم الأربع في وجه القائل).

استأنس الأسد منذ فترة ليست بالقريبة..

وسأحكي لكم الحكاية من البداية حتى لا تلتبس عليكم الأمور.

إنني قرد عجوز عشت طويلًا حتى مر عليّ أكثر من مئة وخمسين شتاءً.. ولك أن تكنّيني أبا العيون لأن لي عينين واسعتين تبصران الأشياء جيِّدًا..

كانت الأسود قديمًا هي التي تملك الأمر والحكم في الغابة، وكان حكمها على الغابة من العدل والحكمة حتى سمعت به الغابة الأخرى، وحتى صار حكمهم هو الصورة المثلى للملك والسياسة والرعاية.

ولكن رغم ما كانوا عليه من قوة وعدل.. فإن البعض لم يعجبهم ذلك ونقموا على الأسود انفرادهم الطبيعي بالسلطة، ولا تخلو غابة أو مكان من هذا الصراع المتكرر بين الملوك وخصومهم.

وقد تعد الخطط والمؤامرات لإقالة الملك أو قتله، لكن بسبب عدل الملك وحكمته كان مآل ذلك للانفضاض والانخذال، ولذلك فكرت طائفة من الحيوانات اختلفت أشكالها وأحجامها وأنواعها (وبعض هؤلاء لهم أقارب في الغابة الأخرى)، واتفقوا على خطة طويلة المدى:

سيموت الملك حين يموت ويكون لنا مع عشيرته شأن آخر.. سنستدرج الأجيال التالية جيلًا بعد جيل ونأخذهم باللين والمداهنة، ونشغلهم بملاهي حياتهم والطعام والشراب ونجعلهم بعد فترة -وإن

طالت- ينسون ملكهم الطبيعي الموروث، ويستأنسون كبقية الحيوانات الضعيفة غير المفترسة.

طال الانتظار وأخذت الأجيال تضعف وترق وتنسى أمرها وأمر آبائها، ولما جاءت اللحظة وتهيأ الأمر لأولئك المتآمرين هيمنوا على مقاليد أمور الغابة، ودانت لهم بكل مخلوقاتها كبيرةً وصغيرةً زاحفةً وماشيةً وطائرةً، وانحاز لهؤلاء المنبوذون والمتوحشون من حيوانات الغابة لأنهم وجدوا في ذلك تحقيقًا لمصالحهم وتسلطًا على بقية الحيوانات يشبع ما هم عليه من شر ووحشية!

أما عن الأسود.. فلم يعد غريبًا أن نرى في أيامنا هذه بعض الأسود يفضل أن ينهش العشب بدلًا من أن ينهش اللحم.. ويعيش في الظل، ولربما مرت عليه الأيام الطوال دون صيد أو قتال ينال فيه ما يشتهي من اللحم.

ولك أن تتخيل أن هؤلاء المتآمرين لأنهم كثر قد وقعت بينهم الشحناء والبغضاء والصراع على الملك.. ولقد حدثت صراعات قصيرة متكررة، ولكن -على نحوٍ ما وبرغبة عازمة في ألا يعود الملك للأسود- سارت الأمور وتابع الكل حياته على ما قد يكون فيها من ضغن يشغل الفكر ويهم النفس ولكنْ ما هَمُّ الحيوانات الأكبر إلا الحصول على الطعام والبقاء أحياء!

وأصابت تلك الطريقة الأسود كذلك فانثنت مخالبها، وهزلت أجسادها وعاشت كما تعيش بقية الحيوانات لا تدري عن ملكها الضائع شيئًا وهي تظن أنها كغيرها من سكان الغابة ليس لها في ذلك الأمر من نصيب..

وحتى نحن كبار السن في الغابة لم يبقَ في ذاكرتنا إلا رسوم باهتة وذكريات شاحبة عن الملك القديم العريق، وما تذكرت ما أخبرتكم به

إلا بسبب الذي حدث بعد ذلك.. وكثير منا نسي ذلك التاريخ تمامًا، والذي بقيتْ عنده بقايا تناساها حتى يحفظ ذلك الرأس فوق عنقه، وتطاول الزمان يُنسي بل يُغري بالتناسي..

كان هذا حتى جاءنا ذلك الحيوان العجوز الذي يشبه الحمار، ولقد علمنا حين رأيناه أنه رغم عمره المديد الذي يزيد على مئتي شتاءٍ.. ما زال يتميز بالفطانة والذكاء، ومعروف أن فصيلة الحمير من أذكى الحيوانات!

جاء هذا العجوز الحكيم وعاش بيننا فترة من الزمان علمنا فيها حاله وأنِسنا به وعرفت الغابة كلها حكمته وفضله..

ولك أن تتخيل كيف كان رأيه في حكام الغابة المتجبّرين دومًا، المختلفين دومًا، الشرسين دومًا.. ذلك الخليط الغريب من ذئاب، وضباع، وثعالب، وبعض نمور والذي جمعه غرض واحد ألا وهو حب السلطة والملك (ومن ملَك السلطة ملَك كل شيء)، والمتفقين دومًا -وهذا ما يعصمهم من الانفراط- اتفاقًا صامتًا غليظًا على عدم عودة (بهمس: الأسود) إلى ناصية الملك مرة أخرى..

جاء العجوز ليعيش بيننا، وما كان ذلك إلا تمهيدًا منه ليلقي بيننا بنبأه العجيب، ونذيره الرهيب..

وقد حان الوقت..

اجتمعت الحيوانات في منتصف الغابة، وشاع الخبر أن العجوز الحكيم يريد أن يخبرنا بأمر هام فيه مصلحة الغابة جميعها..!

تساءلت الحيوانات عن الأمر، وأرسل حكام الغابة رسلهم يتقصون ويتشممون فجاءهم الخبر أن العجوز جاد في ما يقول، لكنه لن يتكلم إلا أمام الجميع فجاؤوا بحشمهم وزينتهم..

وتجمع الكل في صعيد واحد..

وتكلم الحمار العجوز فقال:

يا معشر الحيوانات وسكان الغابة..

لقد عشتم في هذه الأرض بين هذه الأشجار والينابيع والتلال طويلًا وأنعم الله عليكم بنعم كثيرة وأرزاق وفيرة، ومنكم من شكر ومنكم من لم يشكر ولكن احمدوا الله على أن أدام عليكم النعمة فلم تتبدل..

وأحسبكم تعرفون هذه الأرض حق المعرفة بل تعرفون تاريخها ولكن ليس الأمر كما تعرفون وتألفون..!

إن هناك أشياء لا تعرفونها، وغيبت عنكم عن عمد لأسباب كثيرة والمخلوقات رهينة ما ترى وتألف، فقد عايشتم الأسود وعايشتكم، وعلمتموها لا حظ لها في خطر أو سلطة وظننتموها هادئة وادعة تعيش لتأكل وتشرب وتتناكح، وتسلَّط عليكم حكام علمتم ظلمهم وقهرهم ومكرهم لكنكم رضيتم بهم طلبًا للطعام السهل والعيش الهانئ..

ولكن الحقيقة أن هؤلاء الحكام ليسوا حكامًا وماكان لهم أن يكونوا ولاةً عليكم ولا رعاةً لكم -وما رعوا إلا أنفسَهم- ولقد علم كل واحد منكم في قرارة نفسه صدق مقالتي

لذلك أقولها صريحة وبلا خوف:

إن ملوككم الحقيقيين هم الأسود، ولا ملوك للغابة إلا الأسود وقد كانوا هم الملوك قديمًا، وما شهدت الغابة أحلى ولا أعدل من أيامهم، ولكن أُريدَ لهم أن ينسلخوا من ملكهم ويتركوه لهؤلاء الحكام المزيفين..

ثم إنه لا صلاح لكم ولا رعاية إلا بأن يعود أصحاب الملك الطبيعي لمناصبهم وعُرُنهم..!

واعلموا أنكم لو تهاونتم في ذلك فإن الخطر محدِقٌ بكم فإني علمت علم اليقين أن الغابة الأخرى تعد لقتالكم ولن ينجيكم من ذلك -بعد فضل الله- إلا أن تجتمعوا على قائد واحد قوي حكيم يأخذ بكم للنصر والعلو.. وهذا القائد قدره المحتوم أن يكون من الأسود، ولا يصح إلا ذلك..

فمن صدقني منكم فقد حاز الفهم والنجاة، ومن لم يصدق فلا يلومن إلا نفسه.

سكنت الغابة بأسرها هنيهة بعد هذا الكلام الفصل، ثم علا اللغط وسرت الهمهمة والصهيل والزئير والنهيق والعواء بل الهديل والمواء!

وانتبهت الأسود عند سماع هذا الكلام واشرأبَّت بأعناقها الهزيلة الضامرة، ولبدها المنكمشة لتسمع هذه القصة الغريبة التي لم يتخيل أحد أيًّا كان أن تحدث وتكون واقعًا محققًا.

وزأرت الأسود.. لكنه زئير ضعيف خافت بعدُ..

وبرقت عيونها..

لربما أحست بهذا الخيط الرفيع البعيد في أغوار نفوسها، وفي أعماق قلوبها أنها لم تخلق للراحة والدعة..

لم تخلق هذه الأنياب، وهذه الأحجام، وهذه القوة، وهذه المخالب للسكون في الظل والنوم والاستئناس..

لربما أحست أن هذه الطبيعة القوية الكاسحة يراد منها أن تقوم لتضرب بأرجلها وتزأر بحناجرها القوية لتتأهب للوثبة المخيفة، فتفزع الحيوانات كلها إجلالًا ومهابة وانقيادًا..

لربما أحست في خبايا نفوسها الأبية بمثل هذه الأشياء يومًا..

ربما..

لكن المخلوقات جبلتْ على ألا تخالف المألوف المعهود وإن خالف ما يقر في قرارتها، وما تتفجر به نفوسها.. فلطالما رأت في أعين الحيوانات الأخرى الأمن منها وعدم الخوف بل التهكم والسخرية أحيانًا، فلا عجب أن خنعت واستسلمت وظنت بأنفسها ما ظنه الكل بها..

ولكن لم يعد الأمر كما كان..

زأرت الأسود فانخلعت قلوب المتآمرين، أولئك الحكام المزيفين..

نعم..

فقد علموا أن الأسود لا يكونون إلا ملوكًا فظلوا طوال العقود والقرون يقتلون فيهم إحساسهم بذلك حتى صدقوا أنهم يعيشون كبقية الحيوانات لكنهم يعلمون أنهم بمجرد أن يتيقنوا حقيقة أمرهم، ويتوقوا إلى ذلك.. ستتيقَّظ الزعامة في قلوبهم وفي دمائهم، وما أخطر ذلك وما أشد هوله على هؤلاء! لا جرم أنهم يفرقون الآن وتصطك أسنانهم لأنهم يعلمون صولة الأسد حين يزأر!

وهنا..

وبصورة تلقائية ودون ترتيب مسبق قامت معظم الحيوانات وتحركت لتحيط بعشيرة الأسود، وطأطأت لها رؤوسُها معلنةً الطاعة ومسلمةً لها بالملك والزعامة على كل الغابة.

وبصورة تلقائية أيضًا قامت الأسود لتنال هذا الشرف التي هي جديرة به، ولتعلن في صمت قبولها لذلك، كأن قرونًا من النسيان والاستئناس والهزال قد اختزلت في طرفة عين وعاد الأمر لما كان عليه وكأن شيئًا لم يحدث..

نقلت بصري سريعًا ناحية الحكام المتآمرين فوجدتهم ممتقعة وجوههم، شاحبة ألوانهم زائغة أبصارهم، لا يستطيعون حراكًا ولا كلامًا، وقد ظهر الأمر جليًّا، وعلم كل حيوان كبيرًا وصغيرًا في ذات نفسه أن الأمر كان على غير الصواب وأن ملك هؤلاء كان ملكًا زائفًا مغتصبًا..

وتحرك فصيلٌ من الحُمُر الوحشية فأحاط بهؤلاء، وربما لمحت في أعين بعضهم نية للتمرد أو الهرب لكنها سرعان ما انطفأت وانخذلت وطأطأت رؤوسهم وخنعوا واستسلموا للأسر وأعلنت الأسود أكبرها وأحكمها زعيمًا وملكًا للغابة.

وشاع إحساس عام بالراحة بعد أسر هؤلاء الحكام المتآمرين الذين كانوا كالشوكة في حلوق الحيوانات، وبدا الامر كأنك تعود إلى غابتك القديمة الزاهرة التي اشتقت إليها بعد طول اغتراب وسفر.

وأخذت الأسود كلام الحمار الحكيم على محمل الجد من أول لحظة، وتشاور ملكنا الجديد في ما يمكن عمله...

لم يمضِ كثير وقت حتى رأيتُ حيوانات الغابة الأخرى على أطراف غابتنا تستعد للقتال وأعلنت الحرب.. واحتشدت الحيوانات..

وحين نظرْت إلى جموع الحيوانات المقاتلة علمت أن هذه المعركة لا بد أن تكون مصيرية علمت ذلك بحِسِّ الشتاءات المئة والخمسين، وبما رأيتُ وخبرت، وأيقنت أن ما هو كائن بعدها لن يكون أبدًا مثل ما كان قبلها.. وقد علمتْ الحيوانات أيضًا أن هذه المعركة ليست كأي معركة مرت بها أو سمعت عنها من قبل، وأيقنت أنها معركة فارقة فإما الخلاص والملك والهناء أبدًا وإما الذل والموت.

استعدت الحيوانات صغيرها وكبيرها، قويها وضعيفها لأنها معركة الجميع، ويجب على الجميع أن يهبَّ لها..

لن أحكي تفاصيل كثيرة وأصف ما حدث، لكني شهدت المعركة وتمنيت أن أكون شابًا لأصنع معهم نصرهم الخالد، ورأيت حينذاك في عيون سكان الغابة جميعًا شيئًا جديدًا وأملًا وعزمًا ماضيًا فاطمأنت نفسي وقرت عيني..

وهجمت حيوانات الغابة الأخرى.

لقد كبرت سني ورق عظمي، وربما كان في هذا القتال نهايتي ولكني نظرت إليهم ووقع في قلبي أنه.. حتى إن دافع هذا الجيل الأسديّ من أجل ملكه وسلطانه وغابته وأرضه، ودفع في ذلك الثمن الغالي، فهناك -لا محالة- جيل قادم سيعلم كيف ضحى الذين من قبله من أجله، وكيف نهضوا ليستعيدوا أسديتهم المسلوبة، وسَيَتِمُّ والله الأمر، ويعود الملك إلى أصحابه الذين لن يسمحوا أن يكونوا كالظباء الجفلة مرة أخرى، وإن بذلوا في ذلك المهج والدماء لأنهم سيكونون أسودًا ليسوا كالأسود.. وملوكًا ليسوا كالملوك، وقادة ليسوا كالقادة...

ورأيتُ -من فوق الأشجار- مشهدًا ما كنت أظن أن أراه في هذه الغابة التي عشت فيها طويلًا..

مشهدًا يقشعر له البدن.. وينتفض له القلب..

مشهدًا مخيفًا باهرًا يجعل الناظر يوقن بالنصر..

مشهدًا لا تستطيع أن تصف جلالته وروعته..

مشهد الأسود مطلقة زئيرها..

هازة رؤوسها..

نافشة صدورها.. وهي تتحفز

للوثب.

١٤٣٢ هـ

المقاعد الجلدية القديمة

كنتَ تكرهُ منظرَها الشاحبَ القديم بأزرارِها الكثيرة، وبرودتها، وجمودها الذي ما كان يختلفُ كثيرًا عن أحوالِ أصحابها الجالسين عليها، أو ممَّن يقومون ليُمسِكوا بذلك (الميكروفون) الطويلِ العُنُقِ، أو يُشِيرون بأيدِيهم وأذرعهم إشارةَ الإذعان التي لا تُغنِي من الأمرِ شيئًا.

كنتَ تكرهُ ذلك التصويرَ الرَّدِيء الذي يظهرُ الوجوه شاحبةً باهتة، فيزيدها قبحًا على قُبحها، ورَداءةً على رَداءتها، وكذبًا على كذبها.

وكنت تكرهُ ذلك الصوتَ المشوش عرضًا أو عن عمدٍ، واقتِطاع الكلمات المرادة التي يُطلبُ منك أنْ تلتقطها لتعلم شيئًا مُعيَّنًا، وليرسَخَ في قلبك أمرٌ مُعيَّن.

كنت تكرهُ أولئك الأشخاص الذين استأثَرُوا بدائرة الضوء ومِساحات الحديث دُون غيرِهم، وقمَعوا وأسكَتوا كلَّ صوتٍ يخالفُهم، ومنهم المدلِّسون والكذَّابون، والمزيفون والفاسدون، والـ...، والـ...، والـ... إلى قائمةٍ طويلةٍ ربما لا يتَّسعُ لحصرِها كتابٌ.

وكنتَ أيضًا تكرهُ هذه السطوة الخفيَّة بل المُعلَنة لهؤلاء، في تطاوُلهم على مَن يُبدِي رأيًا أو اقتِراحًا، وكأنهم قد قهَروا الحقَّ لهم، فلا يستطيعُ أنْ يجري على لسان غيرهم.

وكنـتَ كذلـك تكـرهُ أولئـك النائمـين الكُسـالى والبطَّالـين المأجوريـن أو المطبِّلـين المزمِّريـن الذيـن زادوا الطـين بِلـةً، وألزَمـوا النـاس وَحْـلَ تخلُّفهـم فلـم يدعـوا لهـم فرصـة التحـضُّر والتثقُّـف، ووَأدُوهـا في النُّطَـفِ قبـل أنْ يكـون لها مهـدٌ!

كنـتَ تكـرهُ تلـك الدائـرةَ التـي يجلسـون فيهـا، وكأنهـم يُزمِعـون أمـرًا مريبًـا لا دخـلَ لسـواهم بـه، وإيـاك أنْ تقـودَك قدمـاك إلى منتصـفِ تلـك الدائـرة المقيتـة المميتـة، فلـم تكـن ترحـمُ حتـى هـؤلاء النـوَّاب أصحـاب البقيَّـة مـن الكَرامـةِ الذيـن ظنُّـوا أنهـم سـيُنِيرون جُـزءًا ولـو ضَئِيـلًا مـن هـذه الدَّياجـير الدائريَّـة المتراكمـة.

كنت تمقتُ هذا الكِبْرَ الذي يغلفُ وجوهَ العصبة المتحكِّمة

وكنـت تمقـتُ كـبرَ رئيـسِ الجلسـة، بـل صلعتَـه وشـعرَه المائـل المرسـوم، وتتخيَّـلُ أنَّـه بوضْـع شـاربٍ أسـود صغـير تحـت أنفِـه سـيتحوَّلُ إلى صـورةٍ كاريكاتيريَّـة مـن (هتلـر)، ولا يبقـى حتـى تكتملَ الصـورة إلا أنْ يرفـع يـدَه بعـدَ كلِّ قـرارٍ ويقـولُ: (هايـل هتلـر) بـدلًا مـن قولـه: الموافـق عـلى القَـرار كـذا يتفضَّـلُ برفـعِ يـده، التـي مـا تـكادُ تكتمـلُ حتـى يرفقهـا بقولِـه: موافقـة، ولعلَّهـم رفَعُـوا أيديهـم بتحيَّـةٍ مماثلـة للـ(فوهـرر) العظيـم! ولعـلَّ البعـضَ لم يرفـع يـدَه لأنهـا مرفوعـة مسـبقًا، أو ربمـا لجـأ بعـضُ الأذكيـاء لتعليـق يـدِه بحبـلٍ أو وضـع سـنادات لحملِهـا، بينـما هـو يُضاحِـكُ زميلـه، أو يـأكُل، أو حتـى ينـام بعـضَ الوقـت حتـى ينتهـي هـذا الهـراءُ مدفـوع الأجـرِ.

كنـت تمقـتُ هـذه التمثيليَّـات المحاكـة بغبـاءٍ، ودُون حنكـةٍ ولا حبكـةٍ، لإيهـام البـشر -أو قُـل: تلـك الخِـراف الضالَّـة- بـأنَّ التنميـة شيءٌ ملمـوس، والمشـاكل الاقتصاديَّـة وَشِـيكة الحـلِّ، أو أنهـا قـد حُلَّـتْ بالفعـل (ومَـن كان

يسـتطيعُ أنْ يقـول العكـس؟!) وأنَّ البطالـة في تناقُـص، وأنَّ مسـتوى الدخـل يزيـدُ... كان هـذا قبـل أنْ تتغيَّر سياسـة التزييـف والتزيـين وتجهيـل النـاس، وتخديرهـم بالوعـود الزائفـة والأرقـام الباطلـة إلى سياسـة الصـدم بعبـارة:

(أجيب لكم منين؟!).

كنـتَ تمقـتُ تلـك الحلقـة المفرغـة التـي وقعـتْ فيهـا البـلادُ وأخذَتْهـا لطـرف الذيـل، فـلا حـاضرَ ولا مسـتقبلَ، ولا داخـلَ ولا خـارجَ، حتـى باتـت الأنفـاسُ شـاقَّة، لأنَّـك تحـسُّ بثقلهـا، وتشـبُّعها بدُخـان الألم، ورَذاذ الصـبر، لأنَّـك تعلـم أنَّ بعدَهـا خيارين أحلاهـما مـرٌّ.

فإمَّـا الرضـا والعيـش في مَتاهـات الفـئران، وإمَّـا المـوت بـكلِّ صـورِه بفقْـدِ الـروحِ أو بيـع الدِّيـن والنفـسِ بأبخـسِ الأثمـان.

كنـتَ تمقـتُ تلـك الذلَّـةَ التـي وقعَـتْ عـلى أهـلِ الفضـل والـشرف، ليـس مـن هـؤلاء الظالمـين، بـل مـن النـاسِ في الشـوارع ومجـالات الحيـاة، واسـتِعلاءهم عـلى الحـقِّ، واسـتِقواءهم بالباطـل الـذي رأَوْه سـادرًا طاغيًـا حاكـمًا مُمَكَّنًـا، حتـى كأنَّ المنكـر معـروف، والمعـروفَ منكـرٌ، واسـتحيا الحقُّ أنْ يرفـع رايـةً أو ينبـسَ بكلمـةٍ.

ومـن أشـدِّ مـا آلَمَ النفـسَ ليـس سَـطْوة أهـل الظلـمِ والباطـلِ، بـل سَـطْوة النـاس عـلى النـاسِ، سـطوة النـاس عـلى مـن هـم مثلهـم، وكأن المانـع لهـم مـن الظلـم شيء ثـم زال فسـالت أنفسـهم بمـا فيهـا فـلا تـكاد تجـد ذا عفـة...

وفي النهايـة هـم المـلُومـون لأنهـم خالَفـوا النِّظـام العـام الـذي وضَـع لنفسِـه حقًّـا في أنْ يـرى لـكلِّ هـؤلاء مـا لا يقـدرون عـلى رُؤيتـه، لأنَّ عُيونهم وأبصارهـم وعُقولهـم قـاصرة.

وكنت أيضًا تمقتُ -أمَا للمقتِ من نهاية؟!- ضَياعَ الحقائق والعجزَ عن الانتصارِ للحقِّ.

إذا سألت أيَّ إنسانٍ حرٍّ عن أشقِّ شيءٍ على نفسِه سيقول: أنْ يكون مغلولَ اليدين، والعدوُّ يمرحُ ويقتل ويسرقُ، وأنت لا تستطيعُ أنْ تمنعَه، وربما لا تراه. ساعتَها يكون الموت أهون وأَوْلَى.

كنت تمقتُ هذا الأسْر، أسْر الأيدي، أسْر العين، أسْر الآذان، بل أسْر القلوب.

وما كان يجعل هناك بقيَّة من أمل.

بقيَّة من رَمَقٍ.

بقيَّة من نور.

بقيَّة من يقين.

هؤلاء القوم الذين وضَع الله على ألسنتِهم وقُلوبهم من الحقِّ، فصدَعُوا به، وقامُوا به ما استطاعوا، فجَزاؤهم عند ربِّ العالمين مَن مات منهم ومَن عاش، حتى يُرى نُورًا في البلاد يضيءُ.

تحدَّثتُ عمَّا كرهتُ، وعمَّا مقتُّ.

وبقي أن أتحدَّثَ عمَّا أحببتُ.

لقد أحببتُ هذه المقاعد الجلديَّة القديمة بعد أنْ كنتُ أظنُّ أنِّي لن أراها إلا لأُحوِّلَ قناة (التلفاز) عن هذا الهُراء وهذا الزَّيف.

لقد أحببتُ منظرَها القديم الآن، بعد أنْ كاد القلب يتفطَّر حزنًا وأسًى على بلادٍ ما كان أحراها أنْ تكون في أوَّلِ الأمم، وعلى رؤوس العالم.

لقد أحببتُ هذه الأصوات الجديدةَ وهذه الوجوهَ المنيرةَ -وإنْ اسمرَّت- لأنها تنطقُ بالحقِّ في مكانٍ، ما كان يُنطَق فيه غالبًا إلا بالباطل والكذب والنِّفاق.

لقد أحببتُ هذه الدائرةَ الحميمة التي تُقرِّبُ بين الناس، لأنها وإن اختلفت بعضُ اتِّجاهاتهم فلعلَّهم في دائرتهم هذه يكونون كالوجهين لعملةٍ واحدةٍ، وما دامَتِ العملة جيِّدةً متماسكةً فلا يضرها اختلافُ الوجهين.

لقد أحببتُ هذه السِّيماء التي تَسِم أكثرَ أصحابِ هذه المقاعد والتي تنبيك عن الشرف والرجولة والحق.

لقد أحببتُ هذه الكلمات المعظَّمةَ الموقَّرةَ، التي ما كنَّا نحلمُ أنْ نسمعها في أماكنَ أخرى أقل من هذا، مع أملٍ في المطمح الأمثَلِ الذي لا نَنْساه.

لقد أحببتُ ذلك التواضُعَ والوقارَ والسَّمتَ المبشِّر الذي يبتعدُ بك كثيرًا عن الزيفِ، وعن الحِيَلِ، وعن الباطلِ، ويمدُّك بوَقودٍ يجعلُك تتحرَّكُ وتُحاوِلُ أنْ تستشرفَ هذا النور القادم.

نعم، لقد أحببتُ هذه الأشياءَ وهذه المشاهدَ الآن، وأصبحتُ أتشوق لأراها وأستمعَ لهذه الأصوات التي أزالتْ هذا المقتَ وهذا الكرهَ شيئًا.

وبقي أنْ يكونوا أهلًا لكي يملؤوا بحقٍّ تلك المقاعدَ الجلديَّة القديمة.

الحافة

نظر إلى الأوراق المتهرئة المتناثرة أمامه وأحس باليأس..

كانت تبدو منها بعض الكلمات هنا وهناك من أطرافها..

لكنها لا تكفي لاستشفاف ماهية المكتوب..

أطلق زفرة..

كان يعاني منذ عدة أشهر من قحط فكري وصعوبة في اقتناص أفكار جديدة لكتابات جديدة.. هذا لم يعد يصلح لعالم سريع الإيقاع سريع التغير وأيضًا عالي النفقات.. كان لا بد من شيء جديد يكتبه.

وتذكر بعض الكتاب الذين سألوا عن سبب الكتابة لديهم. البعض قال: المال!

ما كان يفكر بهذه الطريقة ولا كان يظن عن نفسه ذلك لكن ها هو يفعل..

ظل يحاول أن يكتب شيئًا جيِّدًا.. كتب عنوانًا مثيرًا وأراد أن يكتب تحته كلمات مؤثرة فلم يستطع.. حاول أن يتذكر موقفًا حدث له قديمًا ليصيغه بطريقة جذابة فلم يستطع!

والوقت يمضي بأسرع مما كان..

تذكر سؤال الناس لابن المقفع: لمَ لا يكتب الشعر، وهو قادر عليه؟ فقال: ما يأتيني لا أرضاه وما أرضاه لا يأتيني!

وكالتاجر القديم ذهب ليفتش في دفاتره القديمة عن شيء ذي قيمة. رأته زوجته وهو يفتح تلك الخزانة التي يحتفظ فيها بأوراقه وكتاباته القديمة رمقته بنظرة معناها: هل احتجت إلى هذه الأشياء الآن؟ فردها بنظرة معناها: أعاني من نقص في القريحة. فردَّتْ بنظرة مشجعة وانصرفت لأشغالها.

وتذكر وهو يقلب في ملف قديم قصةً كان قد كتبها ونسي أوراقها على مكتبه فمزقتها ابنته الصغيرة قِطَعًا فجمعتها زوجته ووضعتها في كيس وحفظته في الخزانة. تذكر هذا فبعث فيه الأمل وأخذت يداه تتحركان مسرعتان للبحث عن تلك الأوراق.

نظر في الخزانة رفًّا رفًّا مصطدمًا بأشياء كثيرة كان يضعها على مدى الأشهر والسنين ثم ينساها:

قطع أدبية كان قد بدأها ولم يكملها، محاولات شعرية لم تكتمل، ملف به قصص رديئة كان يحتفظ به لنشره بعد أن يشتهر لأن الناس تشتري الاسم لا العمل!

في بحثه طرقت ذهنه أفكار وذكريات كثيرة ندم في نهاية الأمر على عدم تدوينها كان في العادة يفكر بنظام ولا يترك الأفكار الطارئة دون تدوين لكنه الآن مشوش غاضب قلقٌ ألا يجد هذه الأوراق بعد أن أحس أنها أمله الوحيد للوصول إلى شيء جيد يرضيه ويدرك به وقته الضائع.

سأل زوجته بعد أن بلغ به الجهد مبلغًا وتصبب عرقًا رغم المكيف الذي يهدر طوال الوقت، جاءت بينما جلس هو على المكتب ليرتاح قليلًا وفي ثوانٍ كانت قد أتته بالكيس!

لم يحاول أن يجهد نفسه بسؤالها كيف وجدته.. كان قد رأى ما يريد.. حمد الله أنه لم ينسَ أن يشكرها وهو يلتقط منها الكيس بشوق.. فتح الكيس وأخذ يلتقط الأوراق الممزقة وزفر وهو ينظر إليها وأحس بصعوبة المهمة.. تذكر لعبة [البازل] تكوين الصورة فقد كان ما أمامه بازل من نوع متقدم يحتاج إلى تركيز وذكاء حتى يضع قطع الأوراق في مكانها المناسب، لكن لم يكن أحد يستطيع حله إلا هو..

ظل لساعة أو أكثر يجاهد في صبر وتوتر هذا الأمر.. بعد فترة أحس بمتعة هذه اللعبة وأخذ يتذكر الخيط الرئيس للقصة وبدأت أحداثها تتبين شيئًا فشيئًا.. كيف نسي هذه القصة وكيف لم يبحث عنها ليعيد ترتيبها وإنشاءها.. لقد كانت من تلك القصص التي يسميها أصلية: فكرة جديدة لم تمر به من قبل، ومعالجة بتكنيك مختلف، وليست طويلة مرهقة ولا قصيرة مختصرة. أخذ ينقل الكلمات يدويًّا من القطع الصغيرة إلى أوراق أخرى ومر عليه الوقت وهو لا يشعر لأنه كان سعيدًا فمنذ فترة لم يحس بهذا الإحساس! لحظة من مُتَعِ الدنيا الخالدة التي لا يحس بها كثير من الناس، متعة الإنهاء والإحساس بالشبع والرضا المطلق عن النفس ولو لوهلة، متعة خلق شيء جديد. لحظة افتقد مثلها منذ زمن حتى بدأ يعتريه الشك والألم والإحباط.

أخذ يكتبها على الكمبيوتر بسرعة وينسقها ويجهزها ليرسلها للطبع وهو يبتسم منشرحًا.. مرت به زوجته كما هي عادتها لترى إن كان يحتاج إلى شيء. رأته على هذه الحال ولمح في عينيها العجب فابتسم لها..

أنهى كتابتها وراجعها عدة مرات بدقة وعدل فيها بعض الأشياء وأرسلها عبرَ الإيميل..

لم ينتظر ردًّا فقد كان موقنًا من عمله هذه المرة ولم يراوده شك في أن المحرر لن يراجعه في شيء..

كانا صديقين قديمين لكن صديقه لم يبخل عليه يومًا بالنصيحة.

قام ومد ذراعيه ثم استلقى على فراشه وأحس براحة عجيبة تدغدغ أعضاءه حتى استرخى تمامًا وأغمض عينيه...

تخيل نفسه يسير في شارع طويل في آخره منزل من طابقين، وجد نفسه محتاجًا إلى دخول هذا المنزل، لم يدرِ لماذا لكنه وجد نفسه داخله. بهو واسع وسجاجيد ثمينة وتحف هنا وهناك أثاث غالٍ، هذا مكان ينطق بثراء صاحبه لكن كل هذه الأشياء عتيقة يبدو عليها القدم برغم نفاستها. اقترب من إحدى الفازات عظيمة الحجم لمسها فأحس بها تتشقق ثم انهارت أمامه ترابًا. تراجع مدهوشًا ثم رفع رأسه يتأمل الجدران المزينة العالية فلاحظ شروخًا كثيرة. اقترب من إحدى الأرائك ليجلس عليها فبمجرد أن لمسها.. سقط ما فيها من حشو وأحدثت صوتًا مزعجًا يدل على انهيارها. تلفت حوله فرأى أثاث المنزل وجدرانه تتشقق بسرعة ثم تنهار واحدًا تلو آخر، ولمح فوق رأسه السقف العالي يبدأ كذلك في التشقق، وبدأ الغبار يملأ المكان ولكن كان هناك صوت يتردد، شيء ما يدق. الغريب أنه لا يريد أن ينصرف وكأنه لا يشعر بالانهيار الذي أمامه، يشعر أنه هو السبب الرئيس لهذا الانهيار، ونظر نظرة أخيرة كان هناك شيء ما لم يتأثر بالانهيار بعد.. هناك شيء يدق.. وأحس أن السقف لم يعد يتحمل ورآه يهوي عليه فأغلق عينيه.

فتح عينيه، تلفت، ما زال في سريره مستلقيًا بعد أن كتب قصته ولكن ما زال هناك شيء يدق. التقط هاتفه الجوال ونظر ليرى من المتصل كان صديقه المحرر الذي يعرفه منذ أكثر من عشرين عامًا منذ كانا أطفالًا.

وجد نفسه يضحك كما لم يفعل منذ زمن وقال: لا تقل إنك قرأت ما أرسلت إليك بهذه السرعة؟!

أجاب صاحبه: بل قرأتها، لم أتلق منك منذ فترة، وكنت متشوقًا لقراءة ما كتبت.

صمت ولم يرد، وانتظر ما سيأتي بعد هذه الكلمات..

قال صاحبه: ولكن...

هو: ...؟!

صاحبه: أظن أن... الأمر يبدو...

هو: هل هي جيدة، هل أعجبتك؟

صاحبه: نعم نعم، ممتازة بلا شك ولكن...

هو: ما الأمر؟ قل بصراحة!

صاحبه: إنها تتكلم عنك بكل وضوح.. إنه أنت وكأنك تريد أن تتحرر من الأسرار أو تريد أن تلقي بما يثقل كاهلك بعيدًا.. هذه الكتابات تنذر بنهاية الكاتب هل أنت واثق من نشرها؟

الآن تذكر لماذا لم يغضب حين مزقت ابنته القصة وتذكر لماذا تركها بعيدًا...

أحس بصمت رهيب من حوله وكأنه يسمع صفيرًا في الوقت نفسه.. هل وصل إلى هذه المرحلة؟ هل وصل إلى النهاية التي ليس

بعدها إلا السقوط؟ لقد أحس بالفعل أن شيئًا بداخله قد ذهب برغم فرحه بجودة القصة وأصالتها ولكن هل كل مرة ينبغي أن تكون كذلك تنال منه شيئًا أو تنزع منه شيئًا؟

ظل صامتًا تدور به الأرض.

ولم يعرف بم يجيب بنعم أو بلا، ولكن كان يعرف أنه لا بد أن يجيب عن السؤال ويختار..

وتذكر ما رآه حين استلقى على فراشه وخيل إليه أنه يذكر شيئًا قد بقي لم ينهر مع المنزل ولكنه مثل كل الأحلام تبخر منه وتفلت،

ولم يعد يذكر ما هو...!

الفرار إلى الحلم

قد يبدو غريبًا أن يكون فرارًا، ويكون إلى الحلم.

فالفرار إلى شيء يدل على أن هذا الشيء في المتناول فكيف يفر المرء إلى حلم، والحلم كما تعرف في الغالب بعيد وإلا فكيف سمي حلمًا..

ولكن ربما يسوغ ذلك إذا كان مجازًا للتعبير عن النوم أو الخيال فيفر من الواقع إلى الخيال والأحلام.

وهناك احتمال آخر أنني كتبت العنوان ثم جلست لأفتش عما يمكن أن يكتب تحته.

وهذا يفضي إلى احتمال أنني لا أجد ما أكتبه فأقول كلامًا محيّرًا يظنه القارئ شيئًا وهو ليس بشيء.

ولكن مهما يكن من أمر فلا تنفض يدك من الكاتب -أي كاتب- سريعًا فربما استفدت منه من حيث لا تدري، ولربما تبين لك بعد وقوعك فيه وتصنيفك المتسرع له أنه ليس كما كنت تحسب.

لا تعجب مما قد تظنه تناقضًا بين الكلمات أو لعبًا بها فكم من أشياء متناقضة تحدث في هذه النفوس التي لا يعلم أحد خفاياها

الحقيقية، وكم من أشياء تحدث أيضًا في دنيا الناس لا يعلم أحد كيف يقيمها فضلًا عن أن يفهمها أصلًا.

إنني أريد أن أشاركك شيئًا بعيدًا في أغوار نفسي - تلك العجيبة، أو هي ككل النفوس عجيبة- شيئًا قد تظنه يومًا أقرب إليك من يدك أو أصابعك، وفي اليوم التالي قد تراه أبعد من الثريا التي يضرب بها المثل في صعوبة التناول..

شيئًا قد تراه في يوم من الأيام جذابًا براقًا فاتنًا بحيث لا تصبر على التقاعس عن طلبه ويومًا تراه فاترًا محبطًا غير مجدٍ ولا مفيد..

ألم أقل لك لا تتعجل؟!

ألم أقل إن الأمر متناقض؟! ربما.. محير ربما.. غريب ربما..

لا أدري هل خمنت ما هو أم لا، ولكن آخر ما أريدك أن تشعر به هو الإحباط إن أنت لم تجد ما يستحق كل هذا التهويل. وهذا بالضبط عين ما أريد أن أعبر عنه هنا!

سأقول لك عبارة (مفتاحية):

[كان يقال: طاردْ أنتَ حِلْمَك قبلَ أن يُطاردَك هو طَوال عمرك]

ولكني لا أذكر أين قرأت أو سمعت هذه العبارة، بل ربما اختلقها عقلي ثم خَيَّلَ إليَّ هذا العقل أني سمعتها أو قرأتها باعتبار أننا مجرد تجميع، وإعادة ترتيب وإنتاج لما نرى ونسمع ونقرأ..

الحلم.. إنه الحلم.. ألم تعلم ذلك بعد؟

الحلم.. ذلك الشيء البعيد القريب.. القوي الضعيف.. السهل الصعب.. الحار البارد.. الكبير الصغير.. المخيف المتودد.. و... و... و...

وضع من المتضادات ما شئت.

إن هناك سؤالًا حارقًا يتردد في النفس لا يجد إجابة ويدور الإنسان حول نفسه مرات ويعود ليسأل:

ما الذي جعل الحلم بهذه الكيفية؟

كيف جمع بين كل هذه المتناقضات؟

كيف استقرت فيه هذه الخصيصة العجيبة؟

إذا سألت أي شاب صغير عن هذه الكلمة، بل ربما بمجرد ذكرك إياها؛ ستراه يرفع رأسه إلى السماء وربما يتنهد، وقد يصمت محتفظًا بأحلامه لنفسه إذا كان خجولًا، أو لأنه يراها سخيفة، وقد يتحدث طويلًا عن أحلامه العريضة إن لم يكن كذلك، لكنك لن تجد أحدًا في سن الشباب ليست له أحلام!

وهم قد يختلفون في درجة قوتهم وعزيمتهم، فمنهم المتخاذل الذي ترك الدنيا تخبطه وتسيره وترك لذة الحلم.

ومنهم من ينتظر شيئًا لا يدري ما هو لكنه يعلم أنه في يوم من الأيام سيكون أميرًا أو ملكًا وستتساقط فتيات العالم عند قدميه يَنْشُدْن الزواج به!

ومنهم من يظن أنه بالفعل يكاد يطير في السماء ويسير فوق السحاب وأنه يعرف ما في أعماق المحيط أو سيعرفه قريبًا جدًا!

ومنهم من يئِسَ وانخرط في حياة عملية مقيتة مهلكة، ومنهم من سييأس قريبًا لكنه ينتظر شهرًا أو شهرين لعل..

ومنهم من سييأس بعد يوم أو يومين..

ومنهم من وجد نفسه قد بلغ شيئًا لم يكن يتمناه ولا يريده، ولكنه عند البعض يعد من الأحلام الكبار.

ومنهم من حقق طرفًا من أحلامه فعلًا في تجارة، أو سكن، أو سيارة، أو درجة علمية، أو بعض شهرة ثم قعد بعدها فارغًا يسأل:

هل هذا ما كنت أريده فعلًا؟ وماذا بعد ذلك؟

ثم إن الزمن ماضٍ لا يتوقف، بل تسارع في هذه الأيام عما كان عليه من قبل، والذي كان شابًا بالأمس لم يعد كذلك اليوم..

وهذا القدم يصيب الأحلام أيضًا..

وربما لو فتشت لوجدت أن الكثيرين (وأهمس في أذنك ولا تخبر أحدًا: بل ربما الأكثر) قد تنازلوا عن أحلامهم كثيرًا وقنعوا بقطع مهشمة من الأحلام وابتلعوا مرارتهم ورضي أحدهم بزوجةٍ بدينةٍ سليطةٍ، أو برئيس قاسٍ متعجرف، أو بتعليم قليل يساوي في الحقيقة: لا تعليم. وربما وجد نفسه لم يستفد من محصلة خمسة عشر عامًا من التعليم أكثر من معرفة القراءة والكتابة!

ومنهم من حدث له أمر خطير جدًّا.. وانتبه صديقي لأن هذا هو بيت القصيد...

لقد خاف أحلامه...!

ووضعت السنون والشهور والأيام بينه وبينها حواجز ثقيلة عالية، وانقلب أمره من تحديث النفس ببريق الأمل والطموح والسعي نحو الحلم إلى تحديث النفس بأنه قد كبر أو أن الأمر تأخر أو أن الزمان والمكان لم يعودا كما كانا، أو أنه كان أحمق حين حلم بمثل هذه الأحلام الغريبة مستحيلة التحقيق!

ويظل نجم الحلم يخبو في سمائه شيئًا فشيئًا.. وتظل عينه ترتخي عن النظر إليه في شوق إلى ألم..

ثم خزي وخجل..

ثم تكاسل وتناسي..

ثم ندم...

وهذه مطاردة الحلم التي حدثتك عنها في العبارة المفتاحية السابقة:

طارد أنت حلمك قبل أن يطاردك هو طوال عمرك.

بل تقع في شباكه، ولا تستطيع منه فكاكًا فيأسرك التفكير فيه دون القدرة على تحقيقه

فالحلم كالفخ المتقن الذي لا مهرب منه إلا بتحقيقه ومهما تفتش فلن تجد طريقًا آخر سوى ذلك.

إن من الخطأ الفاحش أن يكون الإنسان نصف حي، والحياة التي أقصدها هي الحياة التي تتحقق بمرادك، الحياة التي ترضاها وترتاح إليها، وعدم تحقيق الأحلام يقتل الإنسان، والرضا بنصف الحلم يجعله كمن نصفه في الظل ونصفه في الحر، يجعله نصف حي ونصف ميت فأنَّى لهذا أن يجد الراحة؟!

لقد سألوا الأديب الروائي الطيب صالح يومًا.. لماذا لستَ مُكثرًا في الكتابة؟ فقال كلامًا مفاده: أريد أن أعيش الحياة، إن هناك أشياء أخرى أريد أن أفعلها في هذه الحياة، والكتابة لا تدع للإنسان أن يعيش لنفسه!

نعود مرة أخرى إلى هذا الرجل الذي نال طرفًا من ثوب السماء، أعني حقق طرفًا من أحلامه ثم قعد بعدها فارغًا ليتساءل:

هل هذا ما كنت أريده فعلًا؟ وماذا بعد ذلك؟

الحقيقة أنك لا بد أن تنتقل من حلم إلى حلم، ومن رغبة إلى رغبة، ومن حاجة إلى حاجة ما دمت ما تزال حيًّا على هذه الأرض.

لذلك نقول إن أعقل الناس من يدرك هذه الحقيقة: أن الدنيا دارٌ لا قرار فيها بل أنت تطارد الحلم تلو الحلم، ولا تقنع بنيل شيء ما دمت تستطيع تخطيه لما هو أفضل، ثم ترى أن هذا ما زال قليلًا، وأن هناك ما هو أفضل..

وما هو أعلى..

وما هو أجمل..

وما هو ألمع.

والأعقل من هذا من يفرق بين الحلم الزائف والحلم الحقيقي. وضابط ذلك أن تعلم ما الصواب وما الخطأ.. ما الحق وما الباطل.. ما الذي ينجيك في هذه الدنيا كثيرة الأخطار، وينجيك في الآخرة التي أخطار الدنيا ليست فيها إلا قليل، كما أن متاع الدنيا بجانب متاع الآخرة أيضًا قليل!

ولكن فعل الصواب، وفعل الحق قد يكون شاقًا على النفس فتركن إلى ما تظنه نجاتها وهو ليس كذلك..

ففعل الحق شاقٌّ ومكلفٌ، بل أحيانًا لكي تفعل الشيء الصحيح لا بد أن تتخلى عن بعض ما تريد.. عن بعض ما تحب..

بل عن بعض أحلامك..

إذا تدبرت هذا الكلام، وعرضته على قلبك، ومررت به على فطرتك السليمة التي تنبو بك عن الباطل وعن الزائف فربما..

ربما يخفف ذلك من المشاعر المتناقضة التي تحدثنا عنها في البداية التي تشعر بها تناوشك حين ترفع رأسك إلى السماء وتتنهد، وتتمنى من أعماق قلبك أن تصل إلى هناك..

إلى حلمك البعيد..

١٤٣٢ هـ

متلازمة

(لا حول ولا قوة إلا بالله)

قالها وهو ينظر إلى طفله ذي السنوات التسع يتحرك ببطء في فراشه، ولم يتمالك ابتسامة تسللت إلى وجهه. لم يكن من الغريب أن يبتسم وهو يتطلع إلى ولده النائم، ولكن الغريب أن الابتسامة لم تكن صافية، لقد خالطها بعض الألم فلم تبدُ كما كانت دومًا. ابتسامة لا تستطيع أن ترى مثلها كثيرًا، كأنها ابتسامة مذنب جنى على حبيب له وهو نادم على ذلك أشد ما يكون الندم!

استرجع الموقف الذي لم يكن يفكر في سواه منذ أيام، ذلك الموقف الذي ما ظن يومًا أن يوضع في مثله.

لقد أخبره أبواه أنه كان يحمل نفس المرض الذي أصاب ولده حين كان صغيرًا!

تذكر صدمته حين سمع هذا الكلام منهما، وتساءل في غضب لماذا لم يخبراه بذلك مبكرًا؟ لماذا لم يحذراه قبل أن يتزوج؟ (وتساءل في نفسه حين لفظ هذا الكلام: هل كان ذلك سيمنعُك الزواجَ؟) وصمت أبواه ونظر كل منهما إلى الآخر وأطرقا... تساءل في نفسه: وكيف لا يذكر هو ذلك؟!

لقد كان في السادسة أو السابعة ولم يستمر الأمر طويلًا لكنه عاناه في المدرسة ومع أصحابه كما أخبره أبواه.

كان يطالع وجهَ ابنه الصغير ويشعر بالعجز والحيرة والغضب، هل يلوم أبواه على ما حدث؟ وكيف يفعل..؟! هل يحاول نسيان الأمر والمضيَّ قُدُمًا؟

قالا له لَمّا هدأ: كنت صغيرًا وأخذنا في علاجك من هذا المرض الغريب متلازمة توريت Tourette Syndrom)) الذي له أعراض غريبة: حركات لا إرادية وتشنجات وألفاظ نابية تخرج دون تحكم.

بكت أمه وهي تتذكر تلك الأيام وقالت: كانت أيامًا لم نرَ مثلها في حياتنا وكنت وحيدًا وخفنا أن نفقدك، كدنا نيأس من جدوى العلاج، أدوية وجلسات ومصحات، ولكن بعدها ومع كبرك شيئًا فشيئًا بدأت الأعراض تخف وبدأت في الشفاء بفضل الله.

قال أبوه: لم نرد أن نتكلم عن هذه الفترة البائسة من حياتنا ولا أن نتذكرها أصلًا فضلًا عن أن نخبرك بتفاصيلها لَمًّا تكبر، ولم نكن واثقين هل ستذكر تلك الأيام أم لا.. ثم آثرنا أن نترك الأمر دون كلام ولا خوض في تفاصيل، لما في ذلك من الألم والحزن، ولأننا ظننا أن الأمر انتهى ولن يكون له أثر... ولكن يبدو أننا أخطأنا في ذلك.. يا بني لم نكن نعلم أن الأمر قد يكون له أثر وراثي، لقد قال الأطباء إن ذلك نادر جدًّا، ولما رأيناك تحسنْت ورجعت إلى حياتك الطبيعية نسينا وتناسيننا.. وصمت أبوه.

تذكر لمحات كانت تراوده أحيانًا وأحلام مهشمة كان يراها عن نفسه: زملاؤه يضحكون منه لحركاته الغريبة، والمعلمة تعاقبه لأنه قال كلمة بذيئة ثم يختفي كل ذلك في الصباح ويعود إلى حياته ولا

يظن هو أنها ذكريات لفترة حالكة كانت في حياته حين كان بعدُ طفلًا.

نظر في ساعته وهو ما زال واقفًا يتأمل في ولده النائم كانت السابعة صباحًا وزوجته نامت منهكة بعد يوم طويل مع الولد تعتني به وتحاول أن تتواءم مع النوبات التي تعتريه وأن تذاكر معه بعض المواد الدراسية، أما هو فلم يذق طعم النوم هذه الليلة.

كان عليه أن يذهب إلى عمله وفكر في أن يأخذ اليوم إجازة لكنه وجد نفسه يلتقط الجاكت الملقى على الكرسي الذي كان يجلس عليه وينطلق إلى الشارع.

تنفس هواء الصباح الجديد بعمق وأخذ يمشي على مهل محاولًا أن يصفي ذهنه وقلبه من كل ما فيه من دغل. كان ينظر إلى الناس من حوله الذاهب إلى عمله مسرعًا ناظرًا في ساعته، الراكب دراجته ليذهب إلى مدرسته، الذي يفتح دكانه باكرًا ليدرك رزق يومه. لكن شيئًا استوقفه لم يرَ مثله من قبل: ذلك الفتى ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة وهو جالس على الأرض في شارع جانبي مجلسًا سيدة عجوز على كرسي صغير ممسكًا في يده بطبقٍ وملعقةٍ يطعمها في فمها المرة تلو المرة..! توقف مبهوتًا أمام المشهد الذي أمامه. لم يدر ما الذي حركه في هذا المشهد ولمس مشاعره العميقة.. فتى صغير في سن الانطلاق والفوران لكنه بار بأمه العجوز يطعمها كما كانت تطعمه وهو صغير لا يستطيع لنفسه ضرًّا ولا نفعًا..

مشهد ربما رأى مثله على الإنترنت أو قرأ عنه في جريدة. حقًّا يظن أنه رأى ذلك من قبل لكن أن تراه حقيقةً أمامك بأشخاص أحياء يتحركون في الشارع الذي تمشي فيه.. شيء آخر..

لم ينتبه أنه ظل يحدق في الفتى والعجوز لوهلةٍ حتى لاحظه الفتى ولاحظ نظراتِه ورفع رأسه ناظرًا إليه بطرف عينه، دون أن يتوقف عن إطعام العجوز، وكأن كل ما يحدث في هذا العالم لا يستطيع أن يوقفه عن هذا الأمر الذي يفعله بعناية.

رأى أنه أطال الوقوف والنظر وشعر بعيني الفتى تلمحانه وهو يتابع مشيه مبتعدًا عنهما.

وجد نفسه يخرج جواله ويتصل بالعمل ليعتذر عن الحضور اليوم، ووجد قدميه تحملانه دون تفكير إلى بيت والديه من دون اتصال أو تنبيه.. قطع المسافة مسرعًا.. طرق الباب وسمع وقع أقدام أنثوية رشيقةٍ ما زالت، رغمَ سن السادسة والخمسين.. ابتسم في نفسه وتذكر مشهد الفتى الصغير وهو يرفع الملعقة لفم أمه..

احتشدت في رأسه أفكار كثيرة.. لقد ابتُلِيَ بمرض ابنه كما ابتلي أبواه بمرضه من قبل.. لقد أحباه كما لم يحبا أحدًا من قبل، ولم يريدا له أن يتألم ولو لحظة واحدة.. لعلهم الآن في ألمٍ أشدَّ من ألمه هو..

وتذكر وجه طفله وهو في فراشه، بينما أمه تفتح الباب وتبتسم مندهشة بطريقة مميزة لطالما أعجبته وهو صغير.

ما وراء صاحبي

كان يقال: «وراء كل إنسان قصة».

للأسف..

هذا دائمًا صحيح.

لم أكن أعرفه من قبل..

قابلته في العمل الجديد.. وبطبيعة مرحة أصيلة بششْتُ له وهششْتُ وضحِكْت وانبسطت له كما أنبسط لغيره، رغم أن البدايات الأولى لنا معًا لم تكن موفقة، ولكنك في مثل هذه الأحوال، خصوصًا إذا كنت بعيدًا عن وطنك، تتنازل وتتناسى كثيرًا (ولعل ذلك الأفضل).

كنا نائمين يومًا في سكن الموظفين (قبل أن ننتقل إلى سكن خارجي) وقرب الساعة الثانية ليلًا إذا طارقٌ على الباب يوقظ النائمين ويزعج المتمددين وكأنك ألقيت حجرًا كبيرًا وسط بركة هادئة..

«من صاحب اللحم الموجود بالثلاجة.. لقد ملأ الدُّرْج دمًا!».

قالها صاحبنا بصوته الجهوري المزعج..

قمت مباشرة مع أول كلمة انطلقت من مدفع فمه وكشفت غطائي لأنظر من هذا الإنسان الفظيع الذي يقرع أبواب الناس في هذا الوقت ليسألهم مثل هذا السؤال الغريب..

وقعت عيناي عليه وفهمت تفسير الصوت.. كان أصلع قليلًا كثيفَ شعرِ الوجه والحاجبين والصدر، له نظرة هاجمة تجعلك لوهلة تحجم عنه أو تنفر منه وتجفل..

لك أن تتوقع كيف رددت عليه وعاتبته على فعله غير المبرر.. ولم يكن واحد من الكائنين بالغرفة، بالطبع هو صاحب هذا اللحم الذي يسأل عنه!

قلت له كلامًا معناه: كيف تأتي في مثل هذا الوقت لتقول هذا الكلام التافه وتوقظ الناس من نومهم؟

والغريب المغرب والعجيب المعجب أن صاحبنا لم يلتفت لكلامي البتة، وكأنه لم يسمعني أصلًا وظل يحادث الجالسين المستيقظين ويتأكد منهم عما يسأل ورغم صياحي عليه مرة أخرى لم يلتفت لكلامي، وبدا أنه لم يسمعه أصلًا..

ومن هنا كانت أول معرفتي بعبقرية هذا الإنسان وتميزه!

مر هذا الموقف وقابلته في العمل مرارًا وتكلمنا مرارًا وبدأت الأمور تأخذ منحًى عاديًّا ومستقرًا رغمَ توجُّسي الدائم منه.

ولما أردنا أن نخرج من سكن الموظفين لسكن خارجي أفضل وقد قاربنا أن نكمل العدد ولم يبقَ إلا واحدًا أو اثنين جاء هو ليطلب أن يسكن معنا وحاولت أن أتغلب على توجسي وأضغط تلك المنطقة في نفسي التي تجعلني أتراجع عن أشياء (غالبًا يكون حدسي فيها صحيحًا) حتى لا أكون وقحًا في رفضي طلبه فقال إنه قد مر على كل

المشاركين ووافقوا ولم يبقَ إلا أنا فوجدت نفسي (مغرورًا) أقول: وأنا ليس لدي مانع!

بل وقف واحد منا وقال: إن لم يأتِ فلان فلن أكون معكم.

ولم أدرِ في أيِّ شيء تورطت فيه ولعلها المرة الوحيدة التي حاولت فيها أن أتراجع عن وعدٍ وعدته أو كلمة قلتها لأحد، ولكن وقع ما هو كائن وحضر معنا إلى السكن الخارجي. كانت غلطة أقر بها من جلبه إلينا ووقف له حتى يكون معنا!

كما لك أن تتوقع لم تسِر الأمور كما نأمل وكانت له عادات غريبة في الاستيقاظ مبكرًا جدًّا وإحداث القلق في الشقة بما يفعل في الصباح وصوته العالي في بقية اليوم وجرس جواله الغريب عالي الصوت.

شخصية ثقيلة كأنك تحمل جبلًا في التعامل معه ومعاشرته حتى بمجرد وجوده في المكان.

وكان له أسلوب غريب في المناقشة والكلام بحيث يبحث عما يجعلك تخطئ، ويثبت عليك ذلك، حتى يظهر مظلومًا أمام الناس وصاحب الحق. وحدث بيني وبينه بعض التشاحن ولم نتكلم لفترة.

وكان خروجه وانقطاعه عن المكان بمثابة عيد لنا جميعًا وبإجماع الكل وأحيانًا كان يتغيب كثيرًا في غير عمل أو يزور قريبًا له وجاءت بعض الإجازات فذهب إلى العمرة أسبوعًا (كان من أفضل الأسابيع) ولكن حين جاء كان وجهه ملوحًا من الشمس بطريقة واضحة كحال من مشى كثيرًا أو جلس كثيرًا بلا ظل.

وقعت في نفسي عنه أشياء، قلت: لعله كان يعمل في عمل يدوي مؤقت ولم أستبعد ذلك عنه فقد بحث عنه من قبل ولم يدرك (أو

لعلـه أدرك شـيئًا ولم نعلـم عنـه) وقـال إنـه كان يسـيح في مكـة محبًّـا مستكشـفًا وذهـب إلى مزاراتها، وذكـر أشـياء تـبرر هـذا اللفـح عـلى وجهـه.

ولكـن وقعـت في نفـسي الريبـة مـن ذلـك وكـدت أجـزم بـأن هـذا مـن أثـر عمـل شـاق يكسـب عليـه مـالًا فقـد وجدنـا منـه مـن قبـل حرصًـا في الإنفـاق عجيبًـا دون أن يُظهـر ذلـك بـل يزعـم عكسـه تمامًـا ويصـف نفسـه بشـدة الكـرم، وبأنـه كثـير الأكل والإنفـاق وأنـه قـد زاد في الـوزن كثـيرًا!

وهـذا أمـر كان يغيظنـي أشـد الغيـظ لأن كل مـا نـراه كان مخالفًـا لمـا يزعـم..

ولقـد رأيـت صـورة لـه مـع بعـض الزمـلاء أول العـام فوجـدت فارقًـا كبـيرًا بـين الصـورة وبـين شـكله الحـالي..

كان قـد نحـف وظهـرت عظامـه رغـم متانـة بنيانـه، لكـن زهوتـه ونضارتـه بهتـت وزاد البيـاض في شـعره..

وهكـذا كونـت صـورة عنـه أظنهـا صحيحـة، ولـذا وقـع في قلبـي أنـه كان يعمـل (ويلقـط رزقـه) مـن هنـا وهناك.

رجعنـا إلى العمـل بعـد الإجـازة ومـا زال هـذا اليقـين في قلبـي وانشـغلت ونسـيت حتـى حـدث مـا جعـل القصة مؤسـفة.

كنـت في عمـل بعيـد وكنـت أنتظـر وقـت الصـلاة وحـين خرجـت مـن المسـجد وجـدت رجـلًا بجـوار حائـط المسـجد يحنـي رأسـه ويغطيـه بشـماغ قديـم وكانـت ملابسـه حائلـة ولكنهـا لم تكـن بيضـاء يومًـا مـا.

لم أكـن مـن هـواة إعطـاء أمـوال لهـؤلاء النـاس لأن معظمهـم -فيـما أظـن وممـن قابلـت- متصنعـون غـير محتاجـين، وإنمـا هـي حرفـة ومصـدر للـمال، ومعـروف أحـوال هـؤلاء في كل مـكان. وفي مـصر تاريخهـم عريـق ومعـروف ويبـدو أنهـم هنـا كذلـك!

أقـول لم أكـن مـن هـواة إعطائهـم ولكـن شـيئًا مـا جعلنـي أقـترب مـن هـذا الرجـل صاحـب الحجـم الضخـم الـذي يتخـذ مظهـر الخاشـع المتطامـن..

هممـت أن أضـع يـدي في جيبـي لأخـرج بعـض المـال ولكنـي لمحـت شـعر لحيتـه النابتـة التـي خطهـا بيـاض خفيـف، فتوقفـت ورأيـت وجهـه في لمحـة حـين رفعـه أمامـي، وانحرفـت عنـه بسرعـة وذهبـت بعيـدًا، لكنـي عرفـت أنـه -كـما رأيتـه- رآني...

أكاد أجزم أنه هو بنسبة تسعين بالمئة لكن تبقى شعرة للشك..

إذًا لم يكـن يعمـل عمـلًا عاديًّـا إنـه يتسـول.. ويـا للكـرم والنبـل.. لم أدرِ مـا الـذي حملـه عـلى ذلـك وهـو صاحـب عمـل محـترم وإن كان قليـل الراتـب! ولمـاذا لم يخـتر عمـلًا إضافيًّـا محترمًـا!

إن بعض الناس يصعب فهمه وفهم دوافعه!

قلـت لنفـسي حـين أراه سـأنظر في عينيـه وسـأعلم حينهـا علـم اليقـين أكان هـو مـن رأيـت أم لا ولكـن حـين قابلتـه ونظـرت في عينيـه حـدث مـا شـغلني فهـرب قبـل أن تحـدث شرارة المعرفـة، ولعلهـا ضاعـت إلى الأبـد ولعلـه عـرف ذلـك بموهبتـه الفـذة فـكان يقابلنـي دومًـا ضاحـكًا أو متكلـمًا في موضـوع مـا أو معلقًـا عـلى شيء مـا دون أن يطـرف لـه جفـن!

ولكنـي نظـرت إليـه يومًـا وهـو غـير منتبـه وانتظـرت التفاتـه ووضعـت في عينـي معنـى: لقـد عرفـت أنـك أنـت الـذي كنـت في ذلـك اليـوم..

وانتظـرتُ فلـما التفَـتَ وتلقَّـى صدمـة التفحـص.. زاغـت عينـاه لوهلـةٍ وانصرفتـا عنـي ثـم عادتـا لتحمِـلا تعبـيرًا مـن قبيـل: دعنـا لا نقْـسُ عـلى بعضنـا!

وحتى الآن.. لا أدري يقينًا هل كان يقصد بذلك الاعتراف بالأمر أم لا!

ولكني بعد فترة حينما تأملت الأمر وجدت أني لن أستفيد شيئًا بمعرفة ذلك، فإن كان هو فلعلَّه وصلته الرسالة ولعله لا يعود، وإن لم يكن هو فلا ينبغي أن أوذيه بشكي رغم شدة غيظي منه!

نعم إن وراء كل إنسان قصة ولكن ينبغي أن يراجع نفسه حتى لا يتأسف ويندم إذا اكتشفها أحد..

أو إذا أراد يومًا أن يحكيها للناس..

أُخُطُّ وأمحو الخط

«عشيةَ ما لي حيلةٌ غير أنني
بلقْطِ الحصا والخط في الترْبِ مُوْلَعُ
أخُطُّ وأمحو الخطَّ ثم أعيدُهُ
بكفِّيَ والغِربانُ في الدَّارِ وُقَّعُ»

«ذو الرمة»

وماذا عليَّ إن أردت أن أسترسل في الكتابة دون أن تكون لديَّ فكرة للكتابة، أو بحث مسبق، أو مادة معدة؟

كيف سيكون الأمر، وكيف ستخرج صورته؟

كيف سيتشكل؟ ما بدايته، وما نهايته؟

هل سيكون جيِّدًا أم -كما أظن- رديئًا؟

لا أدري.. لا أدري..

إنما أردت فقط أن أمسك بالقلم وأكتب.. وتذكرت بيتَي ذي الرمة العبقريَّين

ولكن...

ما هذه الورطة التي تورطت فيها، وأي شيء غامرت فيه دون عدة؟

ماذا أقول؟

مطلوب منك أن تسود خمس صفحات على الأقل بشيء جديد مشبع مثير، وويل لك إن لم تفعل. والأدهى أن إطالة المقدمة خُدعة يقوم بها الكُتَّابُ لنفخ كتبهم وتجاوز عدة أسطر بذكاء دون أن يشعر القارئ المسكين.

إذًا.. فهي ورطة داخل الورطة، فمطلوب منك أن تكف عن هذه المقدمة الآن حالًا..

آ... آ...

الآن؟

نعم.

إذنْ أقول: وجدت هذا الكتاب القديم الذي كنت أبحث عنه..

بداية مثيرة... ها قد عدت إلى الخداع... وماذا بعد؟

أي كتاب تعني؟ وكيف وجدته؟ وما فائدته؟

إنه كتاب ليس كأي كتاب، وليس ذلك لمادته أو كلماته أو أفكاره، ولكن للذكريات التى احتفظ بها، بحيث أن مجرد مرآه يبعث في النفس ذكريات: مواقف وصور وشخصيات وضحكات ودمعات، ومجرد لمسه يبعث في النفس حنينًا متتابعًا كسرب من طيور مهاجرة

وحفيف أوراقه ينفذ إلى القلب، وكأن في اليد وترًا مربوطًا بشغاف هذه المضغة إذا مست شيئًا حميمًا تيقظت ذكرياتها ومدفوناتها.

كتاب كالطلل الذي كان يمر عليه الجاهلي القديم فتثار نفسه وتهيج أحزانه وذاكرته وتخرج أشعاره كاللؤلؤ المنتثر في الليل يسبب ضوء القمر لمعانه المثير.

ما قصة هذا الكتاب؟

لقد أفلحت في أن تثير شغفنا-هل حدث فعلًا؟- ولو لم تأت بجديد ف...

ماذا...؟

لا تكمل..

أقول لك إن هذا كتاب في علم الجغرافيا البشرية!

أي صدمة..

وما علاقة الجغرافيا البشرية بالذكريات والأطلال والمواقف؟

قلت لك إن مادة الكتب ليست هي المقصد المراد، بل ما يحتفظ به، وما يهيجه من آلام وآمال ورؤى: غامضة شاحبة أو واضحة ناطقة.

كانت النفس في غضارة الشباب لا تدري لماذا تدرس أمثال هذا الكتاب، وكانت في تلك السن التي يتعجب فيها الشاب لماذا يصاب الناس بالصداع؟ وكيف يمرض من يمرض؟ بل كيف يموت من يموت؟!

بكل قوة بدأت الهمم والاتجاهات والميول تتغير بعد أن مضى تكعب الكتفين، وانفتال العضلات، وخشونة الصوت، وظهر صوت العقل، فاندفعت الروح لتعب من منهل الحكمة والأدب والجمال.

أي جمال وسحر وقوة...

أي طاقات وخيالات وطموحات...

أي انفتاح واتساع شمل العالم كله...

لم يكـن (الإنترنـت) منتـشرًا ولا (الفضائيـات) وكان الكتـاب هـو سـيد الموقـف مـا زال.

وكانـت هـذه الـروح قـد أحبـت الكلـمات وعقـدت بينهـا وبينهـا اتفاقية دائمـة، واعـدة حالمة..

آه... يا لنشوة هذه البداية القديمة.

لن أترك هذه الكلمات ما حييت..

وكادت هـي تنطـق وتقـول إنهـا تبادلنـي حبًـا بحـب، ولكنهـا كانـت مثـل العـذراء الحديثـة العهـد بـزوج، التـي تخجـل مـن التصريـح لزوجهـا بمـا تحسـه، ثـم بعـد شيءٍ مـن المـودة والعـشرة إذا هـي يسترسـل لسـانها فيخـرج منـه مـا كان مخبـوءًا في قلبهـا ومـا كان يحبسـه الحيـاء.

ومـا أسرع أن تلقـي لـه بكلـمات المحبـة والولـع إن هـو أحسـن إليهـا وأكرمهـا، فأمنـت عنـده واسـتقرت.

ها أنا أراك قد بدأت تلتفت إليَّ وتحس بأني لم أخدعك...

هل أنت معي في ذلك؟

لا تتردد... اصدقني القول...

أعلـمُ أني أتكـئ عـلى سـعة صـدرك وإقبالـك، وأنـت شـخص كريـم، إذًا فلـن أخذلـك بـإذن اللـه.

نمتْ هذه العلاقة الفذة بين هذه الروح، وبين الكلمات والحروف.

علاقـة عجيبـة نـادرة لا يدركهـا إلا مـن جربهـا، وربمـا هـي لذلك شـديدة السـحر قويـة التأثـير خلابـة متجددة.

أي أحاسـيس أحسـتها تلـك الـروح، وأي انشراحـات، وأنـوار نالتهـا مـن أثـر هـذه العلاقـة الفريـدة.

معارف تلو معارف..

علوم إثر علوم..

آداب.. أشعار.. تاريخ..

إن الجسـد يرتعـش نشـوة، ويطـير القلـب فرحًـا حينـما يتذكـر هـذه الأيـام الخـوالي.. لذيـذة الخطـو.. صافيـة الليـالي.. خاليـة البـال..

وتذكرت قول الشافعي العجيب:

سـهري لتحقيق العلوم ألذُّ لي مـن وصْلِ جاريـةٍ وطيبِ عناقِ

أثبتـت لي هـذه العلاقـة أن تلـك الحـروف والكلـمات كريمـة الأصـل، فياضـة العطـاء عـلى مـن تعهدهـا، وقـام بهـا، وبـذل لهـا مـن نفسـه، وروحـه.

حتـى كان أن همسـتُ في أذنهـا يومًـا بـسرٍّ قُطِّـب منـهُ جبينُهـا، ونظـرت إليَّ في شَـكٍّ وكأنهـا تسـألني:

هل تستطيع...؟

تعودنا صراحةً مطلقة لا تُخفي عني شيئًا، ولا أكتمها سرًّا..

أريد أن أكتب.

قلتهـا في خجـلٍ وحيـاء (تذكـرت حياءهـا الأول) وكأني طفـل صغـير يهـاب دخـول محـراب الصـلاة، أو يهـاب أول أيـام المدرسـة.

هل تستطيع...؟

مـا أعجـب الإنسـان! يكـون في أول حياتـه هيابًـا وجـلًا حييًـا، ثـم تمـر الأيـام والشـهور فيجلـد ويصلـب عـوده (وإن شـئت فقـل يقسـو قلبـه) وتغلـف رقتـه وهشاشـته بغـلاف متـين سـميك ويضحـك مـن نفسـه أو

يسخر كلما تذكر خجله وحياءه الأول، ويحمد خبرته التي تكونت بعدُ، ويحسن بنفسه الظن.

أحببت ألا أكون كذلك، أحببت أن أكون كالطفل، وأظل كذلك، أحببت أن أظل حييًا رقيقًا هشًا، أحس بأحاسيس الطفل ومشاعر الطفل، أحببت أن أنظر إلى قلبى فأجده كقلب الطفل وهذا ليس مذمومًا فبعض أهل الجنة ممدوحون بأن أفئدتهم مثل أفئدة الطير..

قيل متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة.

قلت: والطيور أكثر هشاشة ورقة من الأطفال.

وانطلقت تلك الروح لتجوب تلك الآفاق التي جابها من قبلها أناس أثروا فيها ومنحوها الذوق والحس..

إن هذه الروح تحب الجمال.. تحب الدقة والإتقان.. تحب هذا الشيء العجيب الذي يبعث في القلب هزة وطربًا دون أن تدرك كنه ذلك الشيء..

ما الذي في هذه الكلمات منظومة أو منثورة يجعلها تبعث هذا الشيء في القلب؟ ما الذي يجعلك تصف كلمات هذا الكاتب بأن فيها هذا النفَس العبقرى، هذا الشيء الغامض الذي يخلب الألباب، ويأخذ بالقلوب؟

ولذلك، عاجز من أراد أن يصف الجمال

أرأيت الفاكهة بطعومها المختلفة هل يستطيع أحد أن يصف هذا الطعم أو ذاك؟

هل تستطيع أن تصف طعم التفاح لمن لم يذقه؟ هذا أمر من المستحيلات، ولن يعلم كيفيته إلا بأن يذوقه، وهكذا الجمال لا يوصف إلا بأن تذوقه.

أودعتها كلماتي الهامسة..

بثثتها أفكاري..

وأيضًا مخاوفي ..

أأستطيع؟

ما زلت أحاول الإجابة عن سؤالها بقوة.. أنطلق في التجارب لأمارس هذه الوظيفة المقدسة.. وفي كل مرة، وفي كل كتابة أعود فأسائل نفسي هل...؟

إن هذه النفس موارة بأشياء لا تستطيع أن تدرك ما هيتها بالضبط.. لا تستطيع أن تصفها.. مشاعر، وإرادات، وأفكار، وقوة، وفورة تبعث على العمل والانطلاق..

إنها روح ممتلئة بهذا الشيء العجيب الذي يظن معه المرء أنه يستطيع أن يفتت الصخر بكلماته، ويلين القلوب، ويغير النفوس.

هذا الشيء اللذيذ الذي يعجب المرء كيف يتعايش الناس وهم لا يحملونه أو يشعرون به.

وتظل تأمل أن تخرج أفضل ما فيه، وتظل تفتش كيف تصوغ هذا الشيء وتحبسه على الورق دون أن يفقد سحره، وحينما تفعل..

تعود لتسأل.. هل أفلحت.. هل نجحت..؟

تردد متوجس ولكن مع نشوة الانتهاء..

ثم بعد فترة تعود مرة أخرى لتتساءل، وتأمل، وتتطلع إلى ما هو أفضل، وما هو أعلى، وما هو أشوق..

وتذكر مقولة القائل:

«إن أفضل أعمالنا التي لم نكتبها بعد، وأفضل أيامنا التي لم نعشها بعد».

وهـذا الأمـل هـو مـا يجعـل هـذه الـروح، وكل مـا شـابهها مـن أرواح تطمـح وتتشـوف لهـذه الياقوتـة النـادرة التـي يظـن في كل مـرة أنـه سيمسـك بهـا..

وقد يمسك بها في بعض الأحيان فعلًا، ولكن..

مـا هـذه اليواقيـت الأخـرى..؟ إنهـا أكـثر جـمالًا.. إنهـا أكـثر إشراقًـا وبهـاءً وسـطوعًا..

إنها تخلب اللب، وتكاد تذيب القلب..

يا لطمعك أيتها الروح القلقة الجموح!

يا لوثبتك القوية حين تودين نيل شيء!

ويا لظمأك الذي لا يرتوي!

رجعت هي تهمس في أذني -ولقد علمت صدق نصحها- وقالت:

ولكن احذر!

من أي شيء تحذرني؟!

انسابت كلماتها رقيقة..

إنهـا مـا سـألتني (هـل أسـتطيع) عـن شـكٍ، أو ريبـة ولكـن أرادت أن تذكـرني أن هـذا الأمـر أمانـة وكلفـة.. أرادت أن تسسـتيقن مـن حفظـي لهـا، وحـرصي عليهـا.

فهمت مقصودك..

إنمـا تريـد أن تتأكـد أن وجههـا لـن يتلطـخ بالغُثـاء الرخيـص التافـه.. تريـد أن تتأكـد أنهـا لـن تـؤتى مـن قبـلي فتضيـع هيبتهـا ومكانتهـا.. تريـد أن تدافـع عـن هـذا الوجـه العريـق في الجـمال، الوجـه الـذي لا تنوبـه النوائـب إلا مـن دخيـلٍ جاهـلٍ أو مـدعٍ سـفيهٍ.

فهمت مقصودك أيتها الباسلة..

لله درك من حكيمة جليلة..

لا نامـت العيـون وأراك تسـقطين في أيـدي هـؤلاء الخبثـاء الذيـن يشـيعون السـفاهة، و الهـراء..

ما أكرمك! وما أعلاك! وما أبعدك عن هؤلاء!

أنت درة لن تنالك الخدوش، وإن تطاول أقزام، وسادت أوهام..

أنـت محفوظـة -بعـد فضـل اللـه- بأقـوام يدركـون قيمتـك، ويعيشـون لخدمتـك، ويسـتعلون بقيمتـك..

استمعَتْ لكلماتي

وارتاحت شيئًا بعد أن خاطرتها بخواطري ثم هدأت وسكنت..

وانصرفـت أنـا مـرة أخـرى لأقلـب النظـر فيـما حـولي، وأعـاود البحـث عـن الكتـب القديمـة والتفتيـش في الذكريـات السـابقة..

ثم عدت أنظر بين يدي

ودعوت الله أن أظل

أخط الخط..

رجب ١٤٣١ هـ

لا أريد أن أمحو الخط

(أسود في أبيض)

«لقد ازددتَ جرأة على الكتابة

ها قد تغيرتَ وعلا شأنُك على الأقل عند نفسك حتى إنك لا تريد أن تمحو الخط..

لم تعد يدك ترتجف وأنت تمسك بالقلم، وتتعرق كفك وتحبس أنفاسك وتختلس النظرات من حولك مخافة أن يرى أو يلمح أحد ما كتبت..

لم تعد تشعر بذلك الخفق الذي يطرق قلبك لأنك لا تحب أن تخطئ، ولا تحب أن ينفضح أمرك ويدرك كل البشر أنك لا تتقن ما تفعل أو أنك قد أغفلت شيئًا هامًّا ما ينبغي للكاتب الحاذق أن يغفله..

لم تعد تحدق في الفراغ مستلهمًا الكلمة الصحيحة المعبرة التي توقن أنه لا يحل محلها غيرها في موضعها..

ألم تعد تخشى الفشل والبعد عن الصواب.. ألم تعد تملك تلك القشعريرة السارية في جسدك التي تعلم إنها تقودك إلى الإتقان والإحكام..

ماذا أصابك؟

أخشى أن تكون قد أصابتك آفة الكتاب..

هل تريد أن تكتب لمجرد أن تكتب.. هل تريد أن تقول شيئًا يفتقد حرارة ذاتك.. يفتقد صدقك.. يفتقد هذا القدر الذي تنحته من روحك ومن أحشائك ليخرج كالجوهر المكنون -أو هكذا تظن- فيبهرك أولًا.. ويكفيك أمام نفسك أولًا.. ويجعلك تحترم هذه الذات التي بين جنبيك والتي لا حياة لك كريمة إلا بالتواؤم معها.. تحترمك كما تحترمها وتقدرك كما تقدرها فلا تلهمك إلا الصواب أو قل الصدق وكل نبيل وجميل أعجب الناس بعد ذلك أم لم يعجبهم..

رضوا عنه أم لم يرضوا..

مدحوك عليه أم ذموك..

هل تريد أن تسود الصفحات فتمرضها ببقع السواد بعد أن كانت بيضاء نقية، أم تريد أن تنحتها حروفًا من نور وإن كانت في لونها سوداء؟!

- ما هذا الكلام المنمق الجميل..

وما هذا التعالي.. الذي يصل إلى حد الكبر؟

من تظن نفسك حين تقول ذلك.. ألا تخطئ؟

ألا تود يومًا أن تكتب شيئًا آخر.. شيئًا أسود؟!

شيئًا من داخل هذه النفس التي تعلم ما فيها من سوءات ورغبات..

شيئًا يطلق العنان لما تعلم أنك يومًا من الأيام تريده لكنك تخجل من الناس.. من أحبابك من معارفك.. ممن يظنون بك ما تعلم أنه ليس موجودًا فيك!

ما هكذا يكون الكاتب الصادق!

أليس الصدق أن تنبئ عما يعتمل في نفسك على الحقيقة؟

انظر إلى نفسك في المرآة وقل إنني أهرف أو أخرف..

قل لي..

- لقد انحرفت عما كنت أريد قوله كثيرًا يا هذا..

ماذا تريد من هجومك عليّ؟

تريد أن تظهرني غير صادق..

أتكلم بكلام المهذبين وما أنا منهم، والذي أتمناه غير ذلك؟!

لا يا أخي الذي ابتليت به.. الصدق ليس كما تزعم.. الصدق أن تتحرى الصدق.. أن تحب الصدق..

من منا لم تنازعه نفسه كما تنازعني أنت الآن؟

من منا لم تحدثه بحديث هو في ظاهره ساحر مزين، بل قد يكون منطقيًا عند البعض لكنه في الحقيقة هو الخطر الحقيقي!

من منا لم يفكر فيما تفكر فيه أنت؟

كثيرون فكروا فيما تقول وانصاعوا وفعلوا وأخرجوا كل ما يشتهون! ثم ماذا بعد..

إن المناضل الحقيقي من يقاوم حتى النهاية..

من يختار الخيار الصحيح..

- من تخدع؟!

إنني أعرفك أكثر من نفسك..

لا تلبس لباس الرجل الحكيم الذي يزعم أنه يحمل رسالة إلى البشر تنقذهم من الضلال المبين وتضعهم على الصراط المستقيم، وتنتشلهم من الغفلة عن الغاية من وجودهم..

من تخدع؟!

قد يكون هذا الكلام مقبولًا يومًا من أناس آخرين.. أما أنت...!

هل تظن أن أحدًا يسمعك أو ينتبه لكلامك (غير الصادق) هذا؟!

إذا كنت صادقًا فلم كنت تلوم نفسك بما سمعته منك في أول المقال.. لمَ هذا الفتور في كلماتك.. كأني أرى حزنًا خفيًّا.. بل إني أرى.. أرى غربة؟!

نعم.. إنها غربة..

بل يبدو أنك تحب الغربة.. وكأنك تجد فيها باعثًا وإلهامًا لكل جميل!

وكأنك تود أن توجد في مكان بعيد بغير عوائق.. بغير مشاغل.. بغير مضايقات أو منغصات..

يأتيك ما تريد وما تشتهي -إنك تتمنى المحال- من الأفكار في أفضل صورة، وأحسن تنظيم وترتيب!

باهرة.. ساحرة.. مثالية..

بلا أي نقص أو زيادة.. وكأنما حيكت من ينبوع الحكمة، وصيغت بأصابع الحسن وغمست في ألوان الجمال..

تود.. وتشتهي.. وتتمنى..

ولكن ماذا يبقى بين يديك بعد هذه الأمنيات؟!

إنك تبحث عن خيال وتفتش عن خرافة!

- لا أدري ماذا أقول لك..

إنك تخلط الأمور ولكن بأسلوب مقنع كاد يخدعني شخصيًّا.. لقد خفت أن أنقلب أو بالأحرى تنقلب أنت عليَّ فتفتنني عما أريد أن أكون.. نعم أشعر بالغربة.. ربما أحبها فعلًا..

وربما لامستَ شيئًا عندي بكلامك الأخير (لقد تعلمت أنت الآخر أن تحسن الكلام) ولكن لا أستطيع أن أترك لك الساحة.. لا أستطيع أن أدعك تفعل بي ما تشاء وتسيرني كما تشاء.. لذلك أطالبك، بل آمرك بالصمت!

اصمت..

اصمت يا هذا قبل أن يحدث ما لا يحمده حامد فإما أن أتبع طريقك المزين الفاتن، وإما أن أكمم فمك فلا تنطق بشيء أبدًا..

ولعلي أفتقد مناوشاتك ومهاتراتك وسخافاتك!

اصمت إذا كنت في أعماق أعماقك تبغي الخير لي، فأنت في النهاية صورة مني فلا تقسُ عليَّ وتمهل..

«ما هذه النغمة التي أسمعها؟! هل هذا حنين أم أنين؟! هل هذا رجاء أم استعطاف؟!

صدق من قال إن للنفس عدة أوجه.. أي وجه هذا؟! وكم وجهًا تحمل؟

لربما فاجئتني بوجه ثالث جديد أو رابع أو خامس..

الوجه الجاد مدعي الحكمة.. الوجه الماجن الساخر.. الوجه الخامل الذي لا يشعر بشيء والوجه الـ... هل بقي من أوجهٍ؟!

أخرج ما بنفسك.. نعم ها أنت تنصاع.. ها أنت تبين عن معدنك الهش.. ها أنت قد أظهرت جزيرة الحقيقة من أسفل ماء الخداع..

ها أنت...

«دع عنك هذه الكلمات الرنانة.. إنما تعلمت ما تعلمت مني فلا تنسَ هذا، فأنا لم أنسَ أني ربما تعلمت منك أيضًا..

ولكنك ازددت جرأة ولا بد أن ترجع إلى حجمك المعتاد الذي تعرفه أنت..

إنني لم أخرج الوجه القوي الصادم بعد.. إني أجد فيه اليوم كسلًا.. ولكنه آتٍ بإذن الله فلا تفرح بما تظن بي..

فالكاتب وإن ضعف يومًا ونزل عن حال القوة والمقاومة، فإنه يقوى ويناضل أيامًا..

ولا يغرنك هذا الفتور وتلك الهنة التي استشعرتها مني فجرأتك عليَّ..

فلأروضنك ولآمرنك فتسمع وتطيع..

والآن اصمت واسمع لهذا الصوت اللطيف.. هذه الأمواج الحانية التي تأخذك بعيدًا لعلك تغسل ما علق بك من شبهات أو أفكار سوداء..

لعلك تجد بعض البياض في هذا الثوب الكبير الذي يلف كل شيء..

أما أنا فما زلت أتمنى..

فقط أتمنى..

أن أكون أهلًا لألا أمحو

الخط...

ذو الحجة ١٤٣٢ هـ

الزهرة الخامسة والثلاثون

«تعب كلها الحياة فما أعجب
إلا من راغب في ازدياد»

(المعري)

* * * *

يأسرك كرور الأيام، وتقلب الليالي وانقضاء الزمان..

يذكرك منظر الأشياء الفائتة وأنت تنظر من نافذة السيارة أو القطار بمرور العمر وانفلات الأيام. وسرعان ما تنتهي هذه الرحلة القصيرة وتقف المركبة، وعندها...

تلك الأشياء الفائتة كالبرق تشبه الأيام والساعات لا يمكن أن تعود مرة أخرى أبدًا وإن بحثت أو فتشت عنها، لأنه تفتيش عن فائت وتنقيب عن منتهٍ.

وتذكر أيامًا وأعوامًا قديمة لم تكن فيها تلقي بالًا لذلك لأنك فتيٌّ قويٌّ صغير جدًا لم ينبت شاربه إلا زغبًا أخضر، كل ما يهمك هو ألا تهزم، ألا تكون مغلوبًا أو مقهورًا، بل لا بد أن تكون منتصرًا حتى في لعبة العمر والسن.

وتنظر نظرة إجلال لمن هم أكبر منك وتقول متى أكبر مثلهم وأصبح وقورًا يهابني الناس ويعملون لي حسابًا، ولا تدري أنك غافل عما أنت فيه من النعيم..

لا تدري أي عذوبة ستترك، وأي براءة وطهر ستغادر..

أي جمال وسحر سينتهي، وأي ألق ونور سينطفئ..

إن الجمال والعذوبة والبراءة في الصغر تكون في أفضل الحالات كأن الإنسان يولد بكمٍّ معين من هذه الخصال، ويظل هذا المخزون يتناقص مع مرور السنين حتى ينتهي في يوم من الأيام..

في أي عام، في أي يوم، في أي ساعة..؟

لا أحد يدري، وأنت لا تدري..

فقط تظل تشتاق هذه الطفولة وهذه العذوبة كلما امتد بك العمر، هذا إذا كانت نفسك من تلك النفوس الشفافة التي لم يعتمها البغي والظلم، وما أشق ذلك! وما أندر أن تجد هذه النفس!

وحينها يفيض بك الحنين وأنت تقرأ أبيات الشابّي العبقرية التي تنم عن نفس رهيفة نقية سرعان ما انتهت إذ لم تحتمل عتمة العالم المعادي:

عذبةٌ أنتِ كالطفولة كالأحـ ـلام كاللحن كالصباح الجديدِ
كالسماء الضحوك كالليلة القم ـراءِ كالورد كابتسام الوليدِ
يا لها من وداعةٍ وجمالٍ وشبابٍ منعمٍ أُملودِ
يا لها من طهارة تبعث التقـ ـديس في مهجة الشقي العنيدِ
يا لها رقةً تكاد يرف الـ ـورد منها في الصخرة الجلمودِ

حدثني بصدق..

هل رأيت أكثر عذوبة من هذا؟

إن نفسك تكاد تتفتت وأنت تقرأ، أو قل تستشعر هذه اللقطة الفذة، هذه الأوصاف الكونية التي تتوقف لها الطيور لتنصت مذهولة، وتميل لها الأشجار لتصغي بانتباه لهذا الغناء العذب الجليل الذي يوشك أن يحركها من منابتها العميقة..

إذًا.. فما الذي يحدث فيَيْبس الرطب ويمسك المتدفق ويجمد المتحرك؟!

ولذا تفرح أشد الفرحة حين تجد من تراكمت عليه السنون، وأثقلته الأيام وقد احتفظ بشيء من هذا التدفق فيبتسم في براءة أو يضحك دون تكلف أو تحفظ، دون أن يراعي هل سيقول الوقورون ذوو الأسنان عنه شيئًا، وهل سيَسِمونه بقلة الوقار أو السفه، أو هل سيسقط في نظر أقرانه واعتبارهم؟

أذكر أني رأيت رجلًا في نحو الخمسين من العمر وقد قابلني مستحييًا خجلًا وكان يستفسر عن شيء، واستمر بنا الحديث، وقلنا أشياء ورأيته يضحك بطريقة لم أرَها عند هؤلاء الكبار الوقورين ذكرني بضحك الأطفال واندفاعهم دون ضابط إذا أثار أحد ضحكهم...

ورغم فرحي بما رأيت واندهاشي من ضحك هذا العجوز بهذه البراءة والتلقائية، نالني شيء من الغرابة أن أرى هذه البراءة مركبة على هذا السن، ورغمًا عني وبما حُمِّلته من مخزون مضاد معتم انتقصت حاله في نفسي!

ونالني الألم بأسنانه أني لم أتقبل حتى ما أحببته وما تمنيته..

وتساءلت في نفسي (هذه المعتمة البعيدة عن البراءة بتراكم السنين): ألم تقل إنك تحب هذه البراءة، وهذه التلقائية، فما بالك لما وجدتها أنكرتها؟!

واشتد حزني على ضياع العذوبة المقدسة وطغيان سنوات العتمة والرَّيْن، وطرقني هاجس: أني لو كنت أملك شيئًا من البراءة القديمة لربما مرضت أيامًا حزنًا على هذا الفقد، ولكني لم أمرض فزادني ذلك حزنًا، وسرعان ما بهت هذا اللقاء في خاطري وأخذت أفكر فيما ينالنا من التغير..

كيف تنقلب الأشياء؟

لماذا تتغير نظرة الناس إليها؟

قد يظن المرء ثباته على رأيٍ أو مبدأ وسرعان ما يجد نفسَه دهِشةً إذ يتغير هذا المبدأ وهذا الرأي..

هل يحدث هذا لأن الإنسان ينظر دومًا إلى ما ليس في يده، وإلى ما لا يملكه.. ويظل يطارده فإذا ظفر به زهده من فوره..

لماذا تتغير الأشياء ولا يعود لها ذاتُ البريق الخلاب الذي يجعلك تطاردها؟ هل تغيرت هي أم أنك أنت الذي تغيرت، وتقدم بك العمر، وتغيرت الأفكار والخبرات والثقافات والتجارب.؟

هل تغير العالم من حولك أم أنك الذي تتغير كل يوم بل ربما كل ساعة أو كل دقيقة؟

لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»

ولكن ما يحدثه الإنسان من أفعال، أو يقوله من أقوال يكون أيضًا سببًا -بإذنه سبحانه- في التقلب والتغير.

وأظن أن جانبًا من جوانب هذا التغير، وأحد المؤثرات الكبيرة فيه.. التقدم في العمر وتراكم السنين فوق كاهل الإنسان فلا تعود الأشياء كما كانت، ولا تعود الصور كما كانت..

وينتبه المرء بصورة أكبر لليوم الذي يمر، ويظل دومًا في حساب لما فات..

ما ناله من أمراض..

ما ناله من أموال ومكاسب، أو خسائر وانتكاسات..

ويظل يفكر ويعيد النظر، وينتقل انتقالًا مجنونًا بين الماضي والآتي، ويحدث المقارنات التلقائية اليائسة..

وينطق قلبه في همس خافت يكاد لا يسمعه بقية أعضائه:

كم بقي لك من العمر؟

وهل حققت في هذه الحياة شيئًا يجدي؟

ماذا لو اخترت كذا، هل كانت حياتي ستتغير؟

حدث ما.. موقف ما .. يحتاج إلى قرار.. إلى خيار.. إلى أمر فاصل في هذه الحياة المراوغة الغادرة..

ثم تختار.. لأنه لا بد لك أن تختار، فالمرء لا يستطيع أن يفوز بكل شيء في هذه الدنيا بل ينبغي أن يختار شيئًا ويضحِّي بآخر.

ثم تظل تتساءل بعدها: هل اخترت الخيار الصحيح؟

ولكن الزمن وحده هو الذي يستطيع الإجابة عن هذا السؤال الخطير..

وآهٍ من الندم إن تبين لك خطأ قرارك، وبدت عاقبته المنكرة عندها...

لا.. ليس ألمًا وحسب هذا الذي يعتريك.

إنه ندم مغلف بإحباط في لباس من الحسرة والخيبة والألم..

توليفة عجيبة مرة المذاق ما تفتأ تتكئ على شغاف قلبك فتثقل عليه، وقد يزيد الثقل فيضغط ذلك النطاق المتصل بالعين فتجد الدموع تتحدر منك..

لكنك رجل ولا بد أن تخفي هذه الدمعات..

هذا الاحمرار وهذه اللمعة البراقة في عينيك تفضحك وتكاد تودي بوقارك أنت الرجل الكبير البالغ من العمر عددًا محترمًا من الأعوام..

ولكن أي نوعي الندم يعتريك؟ أهو ندم على ما حققت وفعلت، أم ندم على ما لم تحقق؟ إنها ليست أحجية لفظية..

فالمرء إما نادم على ما فعل، وإما نادم على ما فرط وضيع، وقلَّ أن تجد امرأً راضيًا تمام الرضا عما جناه.

ولكن القضية تتلخص في: أي جانب يميل وأي كفة أرجح؟

وإذا عرضت حياتك أمامك وتعاملت معها بلغة النسب المئوية، فهل نسبة ما ترضى عنه في حياتك أعلى أم ما لا ترضى؟

هذه هي المسألة الحقيقية فعلًا!

وهكذا تزيد موازينك أو تخف.. فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه ف...

وقد كان من سبقونا من الأفاضل أفقه الناس في التعامل مع العمر ومع السنين والأيام بل الساعات واللحظات، ولقد ظللت أقرأ وأتأمل

ما كتبوه لعلي ألقى في قلبي وقلبك نضارة تجعلنا ننتبه لهذه الزهرات المضيعة التي تقطفها يد ذلك النهر الذي لا يتوقف أبدًا ولا يتريث.

وما أظن أمة من الأمم كان فيها هذا الالتفات لهذا الأمر مثل أمة الإسلام، فلا تجد في أي أمة أخرى علماء ومؤلفين تخطى كمٌّ ما ألفوه وكتبوه أزمان أعمارهم.

فابن الجوزي مثلًا تعجب كيف كتب كل هذه المؤلفات في هذه السنوات التي عاشها..

والنووي، والسيوطي، وابن حجر، وغيرهم..

ثم تنظر إلى شخصك أنت الفقير الضعيف لا لتفري فريهم، ولكن لتتحسر على ما فرطت وما ضيعت، وتذكر تعاملك مع سنيِّ العمر التي انفرطت منك فارّةً مسرعة كأنك لست أهلًا لأن تمكث عندك، أو أنك لمّا أهملتها ولم ترعها أهملتك وغادرتك..

نحتاج إلى أن نتعامل مع العمر كالزهر والورد يسقى ويروى ويتعهد..

كالغنيمة تغتنم قبل نفادها..

قبل أن تفلت من بين يديك..

وقبل أن تلتفت لتتردد أو تتأخر أو تلعب ثم حين تؤوب وتنظر بعين الاعتبار مرة أخرى إلى هذه الزهرات اليانعات، تراها قد ذبلت وذهب ريحها وعبقها الجميل ولم يبقَ منها إلا هيكل شاحب فارغ، ما إن تلمسه حتى يتفتت رفاتًا بين يديك، ولا يعيد نباته الماء والشمس والطين، ولا تعيده الرعاية والتعهد لأن الأوان قد ولى والرطب قد يبس، ولكن نأمل أن يكون قد بقي في هذا الرفات بعض عبير باهت.

****

زهرة يانعة

بقلبي

مفعمة بالنضارة والحياة

أزعجها التفات القلب عنها

فبكت

وباتت حزينة

فهي تعلم أنها لا بد ذابلة ما دام الحزن

وما دام الالتفات.

ربيع الأول ١٤٣٢هـ

أيها الملك

«وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ

وأحبارُ زورٍ ورهبانُها»

(ابن المبارك)

***

نظرة حنان إلى طفلك الصغير النائم تحت غطائه الناعم..

تأخذك تلك النظرة في خواطر عن مستقبله، عن عيشه، عن حياته، وعن أخلاقه وأفكاره

توشك أن تضمه إلى قلبك غير أنك تخشى إيقاظه لخفة نومه.

كنت تنوي أن تقرأ له شيئًا قبل أن ينام.

أمسكت بالكتاب، لكنه راح في نوم هادئ مطمئن مفاجئ، وهكذا الأطفال ينامون بسهولة ويتعاملون بسهولة.. ويضحكون، ويبكون، ويسقطون، ويروحون.. بتلقائية وعفوية فاتنة آسرة تأخذ بقلبك ونفسك حتى تكاد تنسى العجب من ذلك التقلب، وتلك السهولة واليسر..

قلوب بيضاء نقية يحزك الألم حين تفكر أنه يومًا ما سينالها بعض الكدر أو التشوب، بل ربما كثيرٌ منهما..

إما لؤمًا يفقدها براءتها وطهرها مع الكبر ومرور الأيام..

وإما حزنًا لفقد الأحبة والأعزاء..

وإما ألمًا بتغير الأحوال وخيانة أهل الزمان وتسلط البغاة..

أمسكت بالكتاب الذي اخترته للقراءة لطفلك (كليلة ودمنة) وقررت أن تقرأ أنت وقد جافاك النوم

حزنًا..

أو ألمًا..

أو شفقة على ما تراه من أحوال الناس والبلاد..

كنت تريد أن تعلمه كيف يجب أن تكون حياته..

ثقافته..

حريته..

كيف يعرف حقه، وحق الناس..

كيف يفقه أحوال العصر وألعاب الملوك وعلاقات البشر المعقدة العجيبة..

وقد أزمعت أن تخبره بما تريد فَهِم أم لم يفهم، استوعب بسنواته الستِّ ما تريد بثه فيه أم لم يستوعب..

كنت فقط تريد له أملًا..

تريد له معرفةً، ومستقبلًا..

مستقبلًا يكون فيه متحررًا من الخوف.. متحررًا من القهر..

لكنه مقيد..

بالدين..

بالأخلاق..

بالعلم..

فتحت الكتاب، وأخذت تقرأ كيف كان (بيدبا) جريئًا في نصح (دبشليم) الذي كان في أول أمره طاغية جبارًا، وكيف حمل بيدبا علمُه ودعتْه حكمتُه ألا يصمت أمام ظلم الملك وطغيانه..

ذهب إليه واستجمع شجاعته لأنه علم أن عليه دورًا لا بد أن يؤديه دور العلماء والحكماء...

[قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك:

«أيها الملك، إنك في منازل آبائك وأجدادك الجبابرة الذين أسسوا الملك قبلك، وشيدوه دونك، وبنوا القلاع والحصون، ومهدوا البلاد، وقادوا الجيوش، واستجاشوا العدة، وطالت بهم المدة، واستكثروا من السلاح والكراع (الدواب)، وعاشوا الدهور في الغبطة والسرور فلم يمنعهم ذلك من اكتساب جميل الذكر، ولا قطعهم عن اغتنام الشكر، واستعمال الإحسان إلى من خولوه، والرفق بمن ولوه، وحسن السيرة فيما تقلدوه مع عظم ما كانوا فيه من غرة الملك وسكرة الاقتدار...].

وإن ذلك لعسير على الملوك خصوصًا في عصرنا هذا، فالعبد مركوز فيه حب الرياسة والمال وقل من يحمله ماله وغناه وسؤدده على الشكر والتواضع للخلق ورعاية من استرعاهم ومعرفة نعمة الله عليه فإن للمُلك والقدرة سكرة أي سكرة..

[وإنك أيها الملك السعيدُ جَدُّه، الطالعُ كوكبُ سعدِه، قد ورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ومنازلهم التي كانت عدتهم، فأقمت فيما خوِّلْت من الملك، وورثت من الأموال والجنود، ولم تقم في ذلك بحقِّ ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت، وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت منك البلية. وكان الأولى والأشبه بك أن تسلك سبيل أسلافك، وتتبع آثار الملوك قبلك، وتقفو محاسن ما أبقوه لك، وتُقْلِع عما عارُه واقعٌ بك...].

نعم هل رأيت ملكًا غير سعيد..؟

كيف والملك موروث له خالد لا يزول ولا يضمحل وإن طالت به الآماد ومضت العقود بل إنهم يذكرونه بعد عشرات السنين، وبعد العجف والطوى والذل والضيم فيقولون الملك الراحل..

وإن الملوك اليوم لم يعدوا هذا الكلام طرفة عين، فقد تتبعوا آثار من سبقوهم من الملوك حذو القذة بالقذة وزادوا وأبدعوا، ولما كان من قبلهم لم يحسنوا لأقوامهم ومن ولوا عليهم فقد تتبعوا خطوهم أيضًا في ذلك فلهم كل العذر فيما فعلوا فكيف يقول حاقد ناقم بعد ذلك أنهم قصروا أو فرطوا، أو يقول شاتم عائب أنهم قد لحقهم عار أو شين..

هذا كلام عجيب!

وها هو بيدبا يقاوم يأسه ويعذر نفسه:

[فانظر أيها الملك فيما ألقيت إليك، ولا يثقلن عليك، فلم أتكلم بهذا ابتغاءَ عرض تجازيني به ولا التماسَ معروف إليَّ، ولكني أتيتك ناصحًا مشفقًا عليك...].

تقلب الولد الصغير في فراشه وكشف الغطاء عنه شيئًا، فأعاده الأب برفق وأخذ يربت على ظهره، ونظر في ساعته فوجد الوقت ما زال باكرًا فعاود القراءة..

[فلما فرغ بيدبا من مقالته وقضى مناصحته أوغر قلب الملك فأغلظ له في الجواب استصغارًا لأمره وقال:

لقد تكلمت بكلام ما كنت أظن أن أحدًا من أهل مملكتي يستقبلني بمثله، ولا يقدم على ما أقدمت عليه، فكيف أنت مع صِغَر شأنك وضعف مُنَّتِك وعجز قوتك، ولقد أكثرت إعجابي من إقدامك عليّ وتسلطك بلسانك فيما جاوزت فيه حدك...].

إن الملوك مع طول ملكهم وخنوع الناس وذلهم لهم ورضاهم بالظلم واعتقاد الناس الراسخ في قوتهم الباطشة.. يتعاملون مع الأمور تعاملهم مع شروق الشمس وطلوع القمر (وحتى هذه لها نهاية) كأنها سنة لا تتخلف.

هذه حقوق مقررة لا بد أن ينالوها، كيف يتكلم فيهم متكلم أو يقول فيهم قائل..

وتبلغ بهم العزة والكبرياء أن يعتبروا كل رأي سوى رأيهم خروجًا، وكل كلام لا يرضونه ضربًا من العجب الذي لا يتخيلون إتيانه أو انبعاثه (وهم أنفسهم من صدعوا رؤوسنا حقيقةً لا مجازًا بكلمات من مثل: حرية الفكر، والرأي والرأي الآخر، ونحترم رأي المخالف.. لعلهم يقصدون أنهم يحترمون كلمات الرأي، أما الشخص المخالف نفسه فهذا شيء آخر، لذا يستخدمون معه أساليب أخرى).

ولأنه ينبغي ألّا يحدث فيهم أي متكلم أي عجب.. فلذلك فعل الملك ما يتقن الملوك فعله، ولا يعرفون سواه إلا من رحم الله..

[ثم أمر به أن يقتل ويصلب].

ولكن العجب الأكثر عجبًا أتى في حديث الملك الآتي لنفسه:

[فلما مضوا ببيدبا فكّر فيما أمر به، فأحجم عنه ثم أمر بحبسه وتقييده فلما حبس أنفذ الملك في طلب تلامذته ومن كان يجتمع بهم، فهربوا في البلاد واعتصموا بجزائر البحار، فمكث بيدبا في محبسه أيامًا لا يسأل الملك عنه ولا يلتفت إليه ولا يجسر أحد أن يذكره عنده، حتى إذا كان ليلة من الليالي سهد الملك سهدًا شديدًا وطال سهده فمدَّ إلى الفلك بصره وتفكر في تفلك الفلك وحركات الكواكب فأغرق الفكر فيه فسلك به إلى استنباط شيء عرض له من أمور الفلك والمسألة عنه فذكر عند ذلك بيدبا].

نعم فالملوك يحتاجون دومًا إلى العلماء والحكماء، ولكن ما داموا متأدبين بأدب الذل والعمى عن الظلم..

[وتفكر فيما كلمه فيه فارعوى لذلك وقال في نفسه: لقد أسأتُ فيما صنعت بهذا الفيلسوف وضيعت واجب حقه، وما حملني على ذلك إلا سرعة الغضب، وقد قال العلماء: أربعة لا ينبغي أن تكون في الملوك: الغضب فإنه أجدر الأشياء مقتًا، والبخل فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده، والكذب فإنه ليس لأحد أن يجاوره، والعنف في المحاورة فإن السفه ليس من شأنهم].

طبعًا هذا خيال علمي...!

فالملوك عندنا لا يسهدون ولا يتقلبون، بل قلوبهم طاهرة وسرائرهم نقية لأنهم إنما يعملون بضمائر خالصة لما فيه مصالحهم.. أعني مصالح البلاد!

وكلمة ارعوى هذه كلمة غريبة جدًا على قاموس الملوك.. ولكن لا تنسَ أن ما يتكلم عنه الكتاب ها هنا ملك هندي قديم جدًا فلربما (مع اعتبار صحّة القصة أصلًا) كانت لديهم مثل هذه الأشياء الغريبة خصوصًا مع فروق التوقيت، والتضاريس، والمناخ، وعوامل التعرية والتصحر، وأيضًا أكلات (التيك اواى)...!

ثم انتظر...

ما هذه الكلمات؟

أربعة لا ينبغي أن تكون في الملوك: الغضب والبخل والكذب والعنف.. أظن أن ملوك اليوم اعتبروا حرف (لا) قبل كلمة (ينبغي) خطأً مطبعيًا لذلك حذفوه، فالغضب والبخل والكذب والعنف مكرمات لو أن لها رجالًا.. وأن الملوك أبعد الناس عن عدم الاتصاف بهذه الخصال.

ولكن غضبهم انتصار للحق.. وبخلهم حسن تدبير.. وكذبهم درء للمفاسد.. وعنفهم تكميم لأفواه الحاقدين!

تعالوا نكمل كلام الملك ونستمع لمونولوجه الداخلي الذي يتهم فيه نفسه :

قال الملك:

[وإني أتى إلي رجل نصح لي ولم يكن مبلغًا، فعاملته بضد ما يستحق، وكافأته بخلاف ما يستوجب، وما كان هذا جزاؤه مني بل كان الواجب أن أسمع كلامه وأنقاد لما يشير إليه...]

ألم أقل لك إن هذا كلام الهنود القدامى

هذا الرجل «بِيتْكَلِّمْ هِنْدِي»!

المهم.. أعاد الملك بيدبا لما كان عليه وأخرجه من السجن وعينه وزيرًا للمملكة يقوم بشأنها..

[وكان عادة ذلك الزمان إذا استوزروا وزيرًا أن يعقد على رأسه تاجًا ويركب في أهل المملكة ويطاف به في المدينة، فأمر الملك أن يفعل ببيدبا ذلك فوضع التاج على رأسه وركب في المدينة ورجع فجلس بمجلس العدل والإنصاف يأخذ للدنيء من الشريف ويساوي بين القوي والضعيف، ورد المظالم ووضع سنن العدل وأكثر من العطاء والبذل...]

هذا في الهند القديم..

أما الوزراء عندنا فتطوف برؤوسهم تلال الأموال، وضخامة القصور، وصنوف التحف والجوهر، وأشكال الفخامة والرياسة، فيسكرهم ذلك قبل أن تستوي مؤخراتهم على كراسيهم فإذا لامست المؤخرة الكرسي علمَت أن عليها جهدًا وعملًا عظيم الخطر وهو ألا يمضي طويل وقت حتي تكون قد ازدادت وزنًا وحجمًا وفخامة، وهذا يفيد في ناحيتين، أولًا: أنه يشبع ويمتع ويزيد في تضخيمهم وبالتالي يصغِّر الناس في أعينهم.

ثانيًا: أنها تنحشر في الكرسي فلا يمكن نزع الكرسي بسهولة، وهذا مطلب أساسي حيوي ومن الضروري الحفاظ عليه أكبر فترة ممكنة لأنه يصعب بعد ذلك العثور على كراسي تناسب تلك المؤخرات الضخمة الفخمة!

[واتصل الخبر بتلامذة بيدبا فجاؤوا من كل مكان فرحين بما جدد الله له من جديد رأي الملك فيه، وشكروا الله تعالى على توفيق بيدبا في إزالة دبشليم عما كان عليه من سوء السيرة واتخذوا ذلك اليوم عيدًا يعيِّدون فيه، فهو إلى اليوم عيد يعيدونه في بلاد الهند]

هذا عيد هندي قديم فما له ولنا في القرن الحادي والعشرين!

أحس الأب بقلق طفله النائم ولعله علا صوته في بعض الكلمات فأقلق نوم الولد..

«ماذا كنت تقول يا أبي؟» قال الولد لأبيه.

قال الأب: «إنها قصة قديمة عجيبة يا بني ولكن لا أدري هل ستعجبك أم لا».

- «قصها عليَّ يا أبي».

- «إني فاعل يا بني إن شاء الله..».

صفر ١٤٣٢هـ

آخر ليلة في حياة ابن المقفع

كان رجلًا وسيمًا نحيفًا وقورًا

ولكن ما باله مقيدًا بالقيود الغلاظ، وما بال هؤلاء الرجال مِن حوله قد علتْ سيماءُ الخطورة وجوهَهم، وما بال هذا التنور قد أُشعل في هذا الوقت؟

ما الذي ينويه هؤلاء الرجال؟

ما هذا؟!

إنهم يقطّعون جسد هذا الرجل المقيد!

يقطعون من أعضائه وجسمه القطعة تلو القطعة!

ويرمونها في التنور!

إن الدماء تملأ المكان، وتسيل على الأرض غزيرة!

هل يمكن أن يتصور أحدٌ نفسه في مثل هذا الموقف الرهيب.. أعني كيف يتحمل إنسان ألم تقطيع جسد إنسان آخر؟ هذا ليس من البشر حتمًا، إنه شيطان في لباس البشر.. لا جَرَمَ أن القتل كبيرة ليس كمثلها كبيرة، ولا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا كما قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم.

لنعد قبل هذا الموقف الدامي بعض الوقت. هل ترى هذا الرجل الذي يمشي حاملًا بعض الأوراق وداخلًا الديوان.. لو قدر لك أن تعيش في العصر العباسي لعرفت من هذا الرجل الجاد الذي تكاد تجزم من مجرد مشيته الحازمة وجبهته أنه راجح العقل شديد الذكاء، ولو جالسته يومًا لانبهرت بعقله وفكره وما عنده من العلم والأدب والمعارف ولربما لوكنت محظوظًا لأطلعك على مشاريعه وكتاباته ورسائله..

إنه ابن المقفع أديب العقل!

قد يسأل سائل: لماذا تكتب عن ابن المقفع وقد كُتب عنه الكثير..

وقد عُرف عنه الكثير..

وقد فرغ منه وعُلم حاله؟!

ولأن الإنصاف عزيز وقل من يتعاطاه.. ولأن التاريخ كتب بيد أصحاب القوة والملك والسطوة فقد أردت أن أكتب عن هذا الإنسان.

وأنت تجد الكثير من الوقائع والأحداث التي أصبحت كالحقائق المقررة، وليس ذلك إلا لأنها تكررت واشتهرت، وتناقلها الكل. وإذا تتبعت هذه الشبكة المعقدة من الأخبار والنقول والأحداث فربما يتبين لك في نهاية الأمر أن مصدرها جميعًا واحدٌ بل وحيد.

وكما في علم الحديث فمهما تعددت الطرق وكثرت وعاد أمرها إلى من هو منكر الحديث من الرواة أو إلى متهم فإن كل هذه الطرق تُنسف ويسقط الحديث.

والكلام الذي ورد عن ابن المقفع تشعر أنه قد خرج من جعبة واحدة ويرجع إلى أصل واحد، وكأن الناس رغم إجماعهم على أن الرجل كان آية في البلاغة والبيان ووفور العقل قد علموا -أيضًا- أنه ينبغي لهم أن يرددوا -بنمطية غريبة- اتهامات القوم له بالزندقة والحنين للفارسية ودين الفرس.

وإذا كنت من السعداء الذين قرأوا أعمال ابن المقفع فلك أن تعجب من أين أتى هؤلاء بهذه الاتهامات.. والكاتب الصادق لا يستطيع أن يخفي خلجاتِ نفسه، وما في حقيقة أعماقه عن قرائه بل ذلك يظهر غالبًا، وإن حاول إخفاء شيء فإنه لا يخفي على المهرة الأذكياء من القراء، وسابري أعماق الكتاب..

نعم يمكن أن تلمح شيئًا من العالمية والشمولية في الأفكار والتوجهات واستخلاص العبر وسبر الأخلاق التي قد يشترك فيها جميع البشر وهذا قد يعد مكرمة من وجهة نظر البعض

ولكنك مع ذلك ترى بوضوح كلمات وإشارات شرعية ودينية لا يشك قارئها أن كاتبها مسلم يعظم الإسلام بل مسلم يرجو الآخرة أو هو على الأقل يعمل لها حسابًا.

ولكن الذي يحزن القلب هو ضيق النظرة التي تنفي كل ما سواها، وإن كان عنده بعض الحق الذي لا خلاف عليه.

وأما الروايات التي احتجوا بها وأوردوها كروايات الأغاني للأصفهاني وغيره من الكتب فأولًا: أما عن الأغاني فمعروف عنه أنه كتاب حوَى من الخرافات والروايات الباطلة والأسانيد الواهية ما يكفي في معرفة حقيقتها مجرد قراءة متونها فقط لا فحْص أسانيدها والتفتيش عن أحوالها.

وفي الأغاني من القَصص العجيب عن أخيارٍ من الرجال والنساء ما يتنزَّهُ الفاجر أن يفعله، فضلًا عن المحتشم الفاضل، وهذا معلومٌ لكلِّ آخذٍ ومُتناوِلٍ من هذا الكتاب المُشْكِل.

ورغم الروايات الكثيرة المنقولة في كتب تراثنا بالإضافة إلى الأغاني من مثل (الفهرست) لابن النديم، و(وفيات الأعيان) لابن خلكان، و(مرآة الزمان) لابن الجوزي، و(الوزراء والكتاب) للجهشياري -ولا أريد انتقاص أحد أو تكذيبه، فهم من أهل الفضل والعلم في الجملة- أقول: رغم هذه الكثرة فإن تناقل الروايات وإلقاء الاتهامات وشيوع الأخبار وشهرتها ليس دليلًا على يقينها وصحتها، ولا تُعرف الصحةُ بمجرد ذلك فكم من قصص بل كم من أحاديث بلغت شهرتها الآفاق وهي من الضعف بمكان أو هي من الوضع والكذب بمكان.

خذ مثلًا قصة ثعلبة الذي امتنع عن الزكاة حين طلبها منه النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يقبلها منه أبوبكر ولا عمر بعد ذلك وظل يحاول أن يؤديها ولا أحد يقبل منه... إلى آخر هذه القصة الشهيرة التي ما زالت تروى على المنابر، وتمصمص لها الشفاه، وتفغر لها الأفواه وهي في الحقيقة قصةٌ واهيةٌ منكرةٌ سندًا ومتنًا.

وأعطيك مثالًا آخر (وأنت أهل لسعة الصدر فلا تنقم على استطرادي) ولعلك تعجب إذا علمت أنها كذلك قصة واهية، إنها قصة ابن الأكرمين!

لقد تناولها كثير من العلماء والدعاة على اختلاف درجاتهم وعلمهم وبلادهم وكأنها حقيقة واقعة وكيف أن العادل عمر بن الخطاب أعطى السوط للمصري الذي سبق ابنًا لعمرو بن العاص فلطمه ابن عمرو بن العاص وقال: أنا ابن الأكرمين وأخذ المصري بحقه وضربه وزيادة في العقاب قال عمر للمصري: ضع السوط على صلعة عمرو! ثم قال قولته الساحرة البليغة التي بهرت الدعاة وجعلتهم يتغافلون عن تتبع الخبر:

«مذ كم تعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».

وهذه قصة ضعيفة سندًا ومتنًا كذلك، وكل الكتب التي روتها إنما مرجعها إلى كتاب (فتوح مصر) لابن عبد الحكم والسند فيه انقطاع ورجل مجهول!

وما دام الأمر بالشهرة فدعونا نصدق هذه القصة الشهيرة في فضل ابن المقفع فمن الإنصاف أن تعُدَّ ما للرجل وما عليه.

تروي كتب السير أن عبد الحميد الكاتب صديق ابن المقفع طلب منه أن يختبئ عنده بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وداهمتهما الشرطة وهما في بيت واحد فقالوا: أيكما عبد الحميد فقال ابن المقفع: أنا...!

ثم اعتقل عبد الحميد وقتل بعد ذلك. فهل رأيت وفاءً كهذا في الدنيا قط، وقد قال ابن المقفع في الأدب الكبير: (ابذل لصديقك دمك ومالك).

وأنا هنا لا أريد أن أنتصر لابن المقفع دون بصيرة ولكني أحاول أن أخفف من غلو الغالين أحاول أن أتصف ببعض الامتنان..

ببعض الإنصاف..

ببعض التقدير لهذا الرجل الذي شكل بعض وجدانك، وبعض وجداني، ولقد مدح حسانُ بن ثابت المطعمَ بن عدي ورثاه بعد موته -برغم كفره- بأبيات من أروع ما كتب لأنه كان وفيًّا في يوم من الأيام..

من منا لم يقرأ كليلة ودمنة (والتي أصبحت علمًا على هذا الجنس الأدبي المعروف بالقصص على ألسنة الحيوانات) وأحس بهذا المزيج الساحر العذب من الأسطورة والخيال والذكاء والإحكام..

من منا لم يتمنَّ مزيدًا منها بعد أن قرأها لأول مرة.. قليلة هي الكتب التي تريد مزيدًا منها بعد قراءتها حين تجد نفسك تنشرح وتبتسم وتقلب الصفحة الأخيرة، فتطرقك الرغبة في مزيدٍ من هذه العذوبة وهذا السحر.

إن من حق الأدب الكبير لابن المقفع أن يوضع في أفضل مكان في بيت كل حاكم (فضلًا عن رسالة الصحابة التي تحدث فيها مباشرة بنصائح للإمام، وكيف يتخذ أصحابه وكيف يختار بطانته والتي يجب على الحكام دراستها) وفي بيت كل رئيس أو رب أسرة، وفي بيت كل باغٍ لتأديب نفسه وتقويم خلقه، ومعرفة أمثل الطرق لمعاملة الناس والأصدقاء.

وأما رسالة الأدب الصغير فتدل بحق على ما تميز به ابن المقفع على كثير من أهل عصره بل كثير من الناس في كل عصر وهو الصدق وحمل النفس على التأدب والحكمة.

ومن يقرأ له اليتيمة يقطع بأن هذا الإنسان كانت له عينان ليستا كأعين الناس.. إنه يرى الأمور ويسبر غورها، ويرمي بما في البشر من أمراض ليصلحهم ويعالجهم ويُبصِّرهم بما هم عليه كالطبيب الماهر السريع الوصف والعلاج لكنه مع قوة علاجه وطبه قد يؤذي ويؤلم ولكنه ألم الشفاء ولكن ليس كل أحد يريد أن يُشفَى!

ولعل ابن المقفع وقع فيما وقع فيه (دمنة) -مع فارق كبير أن دمنة كان قد أكله الحقد والغضب، أما ابن المقفع فكان ناصحًا صادقًا تشغله قضية إصلاح الراعي والرعية- فأخطأ رغم حكمته وبصيرته فأغرى القوم لقتله.

لذلك لا عجب -إذا صحت القصة- أن نجده مقيِّدًا بجوار التنور وقد أخذ بعض شياطين البشر يقطعون من جسده ويمزقونه ويرمون

بأعضائه في التنور.. وكأني أسمع ابن المقفع -كما قال في الدرة اليتيمة- يخاطبهم أو يخاطب نفسه أو يلقي لمن بعده:

(فتفهموا ما أنا ذاكرٌ لكم وتدبروه بالحق والعدل، فإن المرء ناظرٌ بإحدى عيونٍ ثلاثٍ وهما الغاشّتان والصادقة، وهي التي لا تكاد توجد: عين مودة تريه القبيح حسَنًا، وعين شانئة تريه الحسَن قبيحًا، وعين عدْل تريه حسَنها حسَنًا وقبيحها قبيحًا)

ولكن أنّى لهؤلاء أن يسمعوا أو ينزجروا..

لقد سكتت الحكمة..

وصمت العقل..

وذهب الأدب.

ذو القعدة ١٤٣٢ هـ

كيف تفكر بطريقة عصرية

عصر يعصر عصرًا فهو معصور

والنسبة إليه عصري..

إذًا فالعصرية فيها من معاني الضغط والضيق والضنك ما فيها..

رغم أنك تنظر حولك وترى من ظواهر الناس ما يجعلك تظن أنهم أبعد ما يكونون عن ذلك.

ولعل تلك المفارقة هي المعنى العميق والحقيقي للعصرية، فهي مواكبة للعصر القائم بتناقضه المقيت المتنامي العجيب..

والعصرية كلمة شائعة جدًا

ليست لأنها تعني وقت العصر كما هو متعارف عليه في بلدتنا!

ولكن لطغيان العصر ومادته القاسية على كل شيء وكأنها باتت تخجل من كل قديم وتنقم عليه رغم ما في القديم من جمال ونبل وسحر..

وقد كان يقال دومًا (من فات قديمه تاه) ولكن الناس تاهوا عن ذلك المثل القديم أيضًا.

وحتى لا يطول بنا المقام في مقدمات..

أتحفكم بنصائح العصرية الجديدة..

أول دروس العصرية أن تنسى تلك اللهجة الريفية القوية التي تتكلم بها في بلدك البعيد فأنت الآن بين أهل المدينة الراقين في عملك أو في جامعتك أو في سفرك.

وأهل المدينة يأنفون -في عصريتهم- أشد الأنفة من هذه اللهجة (الثخينة) عليهم.

إذًا فلا بد أن تقاوم تلك الكسرة المريبة التي تثقل فمك وتكاد توقعك أرضًا مع نهاية كل كلمة تنطقها!

وسيزداد الأمر عليك صعوبة وقهرًا إذا كنت من أرباب تحويل القاف إلى (جاف)، وتحويل الجيم اللذيذة السهلة (الطيّاري) إلى تلك الجيم المرعبة المعطشة القوية التي توشك أن تقتلع محدثك الشاب الرقيق الوديع..

(ملاحظة: يمكن دمج هاتين الكلمتين: الرقيق والوديع معًا وستخرج بكلمة لن تبعد عن وصف ذلك الشاب وصفًا صحيحًا وهي كلمة رقيع، وهي كلمة لم يعد مدلولها يؤلم أو يخدش رجولة صاحبها كما كان الأمر قديمًا).

أنت معي الآن؟

ها قد تخلصت بعد جهد وعنت من هذه اللهجة التي تحجبك عن العصرية وأصبحت من الذين يتحدثون بالفتح في كل كلماتهم.. نعم إن فيهم رقة ووداعة ولطف.. كيف يقولون عنهم أنهم مخنثون؟ لن أفهم هؤلاء المتشددين أبدًا!

تعالَ معي الآن إلى الأمر الثاني في طريق العصرية..

لا بد أن تبدل ملابسك هذه العتيقة الغريبة الغبية!

(ملاحظة: وصف الجمادات بالغباء هذا أيضًا من العصرية، فيقولون مثلًا: كرسي غبي دولاب غبي، سيارة غبية، مع أنه كان يعرف قديمًا أن الغباء لا يكون إلا فيمن يتعامل مع هذه الجمادات، وإذا وصف السيارة أنها غبية فهذا لأن من يتعامل معها هو الغبي).

ما هذه الملابس الغبية؟

يا بني أنت لا تعلم أي شيء عن (النيو فاشون)، كأنك لتوك قد خرجت من معارك الفراعنة مع الهكسوس، لا بد أن تعيد صياغة ملابسك..

وسيزداد الأمر سوءًا إذا كنت من أصحاب (الجلاليب) والأكمام الطويلة، فساعتها لا بد أن تبذل مجهودًا أكبر..

لا يا حبيبي إذا كنت تريد أن تكون شابًا عصريًّا.. فلا بد أن تطيعني وتتساهل قليلًا وتخرج من هذه القوقعة، أنا لن أضيع وقتي (السمين) معك!

لا بد أن تزيل هذه الأسمال وتضع الجديد البراق البارز الغالي ألم تسمع المثل القائل:

(Dress to press) ومعناه المقصود: البس جيدًا حتى تؤثر في الناس.

ولا تقل إنها غالية الثمن حتى لا يسخر منك من حولك.. إن هذا شيء محرج جدًّا..

يا سيدي أنت قادم من العصر الجوراسي.. لا بد أن يتغير مظهرك مهما كان الثمن..

إن المظهر الجيد يقطع بك نصف الطريق إلى الأحلام والأموال..

لا تيأس..

U r just fine

ها نحن ماضون في تحويلك إلى شاب عصري..

البس هذا القميص الضيق.. لا تتعجب قد رأيت أضيق وأقصر من هذا.. ودع هذا السراويل الواسع (الغبي) والبس هذا البلوجينز أو الديرتي جينز أو الـ... (أي حاجة آخرها جينز)!

كله ضيّق طبعًا.. ولو أنزلت الجينز قليلًا من الخلف فلا بأس فهو منهج معمول به من كثير من الشباب (الكُول)!

أنت جسمك معقول لا تخجل من شيء.. تعامل..Be cool

وهذا قانون عصري لا بد من مراعاته أن تكون (كووووول)!

وهي كلمة عميقة جدًّا لو ظللت أشرح لك معناها الظريف جدًّا واللذيذ جدًّا فسنتأخر كثيرًا على...

لا أدري على أي شيء سنتأخر..

المهم.. الآن أصبح مظهرك لائقًا إلى حد كبير، وهكذا تكون قد قطعت شوطًا كبيرًا في طريق «العصرنة».. تبتبتا

خذ هذه النصيحة إذًا:

لا بد أن توائم بين مظهرك وكلامك.. ولا بد أن تبتسم وتضحك.. لا تكن متزمتًا أو (مقفل)..

(المقفل) يصير في المجتمع العصري شاذًّا جدًّا..

آه.. نسيت أقول لك حاجة مهمة جدًّا..

هل لك صفحة على (الفيس بوك)؟

ليس لك؟

لا تعلم ما هو (الفيس بوك) أصلًا؟

إذًا أنت لا تعيش يا حبيبي.. الفيس بوك الآن ضرورة حياتية.. لا تقل أنا لا أحتاج إلى هذه الصفحات أو معرفة هؤلاء الناس وإلا فكيف تكون عصريًّا؟!

ماذا...؟!

تقول: لا بد أن يكون المرء عاقلًا؟!

هذه العبارة جديدة عليَّ.. (ينبغي أن تكون عاقلًا) لا أظن أنها تتناسب مع العصر.

آه بمناسبة العقل.. (الدماغ).. كدت أنسى.. شَعرك لا بد أن يتغير.

و(كبر دماغك شوية)!

تحب تعمل شعرك (سبايكي).. (كنيش)؟

لا.. موضة (الكابوريا) راحت من زمان!

أظن نضع بعض (الجِلّ)، كفاية لأن شعرك نائم أصلًا

لا تكلمني عن العقل والتفكير فالعصرية شيء آخر.. التفكير بطريقة عصرية هو ألا تفكر ألا تتوقف لتراجع وتفحص، بل تنطلق وتجري وتفعل ما يخطر ببالك.

الكبار يفكرون.. بل كانوا يفكرون قديمًا (هم اليوم مضَوا خطوات نحو العصرية) فماذا فعلوا من قبل؟ وماذا قدموا؟

إنهم كانوا مجرد حصار يضيق عليك يومًا بعد يوم..

ولكنهم الآن يأسوا من الشباب، لم يعودوا يهجونهم ويكلمونهم بهذا الكلام الثقيل (البايخ)

«دول مش عايشين معانا يا عم»!

والآن تعالَ معي لنذهب إلى الجامعة..

ادخل من هذه البوابة وستجد نفسك في عالم آخر كبير غير عالمك الذي كنت تعيش فيه من قبل.. هنا الحرية..

هنا تفعل ما تشاء، تصاحب من تشاء، تتحدث مع من تشاء، فقط خذ الحذر من حضور المحاضرات، واحذر أيضًا أولئك الأولاد الأذكياء المغرورين ذوي النظارات أصحاب الا(جيد جدًا وامتياز).. هؤلاء آفة هذا المكان!

يكدون ويتعبون أنفسهم طوال العام ثم في النهاية يتساوى الجميع..

لا عمل ولا أمل.. إذًا فلم القلق و(التقفيل)؟! عش ودَعِ الآخرين يمو...!

لا لن نصل إلى ذلك، المهم.. اسمع كلامي تكسب، هيا بنا ولا تنسَ نصيحتي التي قلتها لك

ألا تذكرها؟

بي كوول...!

الفهرس

هرب الكلمات	٧
الرصاصة الحية	١٥
الغرقد	٢٥
ميمي تشعر بالرعب	٣٥
الأسود تتحفز للوثب	٤٥
المقاعد الجلدية القديمة	٥٥
الحافة	٦١
الفرار إلى الحلم	٦٧
متلازمة	٧٣
ما وراء صاحبي	٧٧
أخُطُّ وأمحو الخط	٨٣
لا أريد أن أمحو الخط	٩٣
الزهرة الخامسة والثلاثون	٩٩
أيها الملك	١٠٧
آخر ليلة في حياة ابن المقفع	١١٧
كيف تفكر بطريقة عصرية	١٢٥